

» تقديم للمقالات :

ان المقصود من هذه الدراسات المقتصرة التي أنجزت في وقت ضيق لا يسمح بالقيام بتحليلات واسعة تحيط بجميع عناصر الموضوعات ، هو تقديم المواد الضرورية ولو مختصرة لمناضلينا ليتسلحوا بها لمواجهة الظواهر المختلفة والتقلبات السياسية في بلادنا وتمكنهم من تكوين نظرة ومواقف محددة بالنسبة لكل المشاكل الوطنية التي تمس الطبقات الشعبية ببلادنا والتي يجب على مناضلينا أن يأخذوا بها .. والمنتظر من التكوين النظرى اتاحة الفرصة لرفقائنا للنقد والمناقشة والاقتراح حتى نستعد للعمل الثورى الذى يتطلب منا مقدرات وكفاءات عالية فنستطيع بذلك مواجهة النظام والتركيبات الاقطاعية والرجعية والتغلب على الصعاب التي ستواجهنا وحتى نكون في مستوى المسؤولية التاريخية التي تحملناها ونحملها وحتى نحفظ أنفسنا من العفوية والتهور .

واذا كان رفاقنا يرون في هذه الدراسات جوانب غامضة أو يعتبرونها خاطئة فيما يخص تنظيمنا وطريقة عملنا، فانه يتحتم عليهم ازالة الغموض والخطأ ، كما يجب عليهم أن يتقدموا بتحليل الوضع كيفما كان نوعه، تحليل لا يخضع للمقاييس العلمية والتجريبية .. واذا كانوا يرون أن الاساليب والوسائل المتبعة في عملنا غير مجدية، فمن واجبهم كملتزمين ومناضلين أن يختاروا وسائل أخرى تكون أكثر فعالية، بل عليهم ابتكار هذه الوسائل وخلقها بوعي كامل وشعور بالمسؤولية .

"ان حصيلة الفكر الانساني التقدمي المستمد من تجارب الشعوب ومن معاركها في سبيل حياة أكثر عدلا وتوازنا بمنهج علمي ثورى لا يقتصر على التحليل والتأمل، بل يجتاز التحليل والتركيب وقرن التفكير بالعمل " .

عن التركيب الاجتماعي والاقتصادى للمجتمع المغربي .

كما أن الغرض من هذا العرض، هو تحديد بعض الظواهر من تاريخ المغرب القديم حتى تكون نظرتنا موحدة الاسباب التي فرضت على بلادنا التخلف ثم الحماية، ثم الاقطاع بعد الاستقلال .. بالإضافة الى التخلف الفكرى والاجتماعي والاقتصادى الذى ما زال مسيطرا على شعبنا في النصف الثاني من القرن العشرين، عصر الثورة العلمية/ الصناعية .

ان القارىء لتاريخ بلادنا الذى يبتدىء منذ العصور الاولى في تاريخ الانسان، يلاحظ أن جل المؤرخين قدموا لنا تاريخا مزيفا يخدم أغراض الفئة التي ينتمون اليها أو الفلسفة التي آمنوا بها. فالمؤرخون العرب، بما فيهم المقاربة طبعا، يقدمون لنا تاريخ العائلة الحاكمة وحلفائها الاقطاعيين ويتجاهلون طبقات الشعب الواسعة، لان هؤلاء المؤرخين، أو على الاصح "العلماء" حسب التعبير القديم، كانوا يتمتعون بامتيازات مستمدة من الحكام، فكان لزاما عليهم أن يدافعوا بطبيعة الحال عن تلك المصالح وعن أولئك الحكام أيضا.

أما بالنسبة للمؤرخين الغربيين، فقد أبدعوا في تزوير الحقائق، وفي فرض مقاييس اقتصادية واجتماعية لا وجود لها، كما حاولوا اخضاع تاريخنا الى نظريات باطلة، زد على ذلك المسطرة القديمة التي اتبعها علماءنا. فقد وضع رجال الدين الاوروبيين والمؤرخين البورجوازيين هذا التحريف والتزوير خطة في تاريخ كتابة تاريخ الشعوب المستضعفة لتربية الاجيال على مفاهيم تخدم مصالح الفئات الحاكمة الاقطاعية أو البورجوازية أو كليهما معا. ولا يجد المرء الا القليل من المؤرخين الذين حاولوا تقديم تاريخ المغرب تقديما حقيقيا مجردا.

مدخل عام : المغرب قبل حكم العلويين

مغرب ما قبل الاسلام

عرفت القبائل البربرية التي استوطنت المغرب عددا من الحروب ضد الفنيقيين والقرطاجيين والرومان، وقد ترك هؤلاء الغزاة أثرا اصلاحيا خاصة في طرق الحرث والسقي والبناء والتعمير والصناعة التقليدية، الشيء الذي أثر بدوره في مظاهر الحياة القروية والحضرية وخاصة الاحتلال الروماني . ولكن بالرغم من ذلك، لم يستطع أحد منهم التمرکز وسط الشعب، لان الفنيقيين والقرطاجنيين لم يهتموا الا بالتبادل التجاري مع القبائل المجاورة لمراكزهم التي تنحصر في بعض المدن الساحلية . أما الرومانيون فقد حاولوا استغلال الاراضي الساحلية وصاروا يزودون روما بالخيرات الطبيعية والماشية والعبيد . ويمكن تلخيص أسباب التنافر بين المغاربة والرومان فيما يلي :

— احتلال الرومان للاراضي وطرد أصحابها أو الاحتفاظ بهم لخدمة تلك الاراضي (نظام الرق) .
— لم يأت الرومان للاستيطان، بل للاستغلال فقط .
و لم يستفد المغاربة من ادارة روما ومؤسساتها وتنظيماتها، فالمواطنون العاديون كانوا يتجنبون الرومان أو يقاومونهم هروبا من الاستعباد . أما رؤساء القبائل والملاكون الكبار، فكانوا غير مهينين لاستقبال الحضارة الرومانية وذلك يرجع لاستيلاء الرومان على أراضيهم .

كما عرف المغرب بعد الرومان الغزو الوندالي الذي نشر في شمال البلاد النهب والتخريب والتعذيب وترك بعد مروره (لم يدم أكثر من بضعة أشهر) اقتصادا مخربا وأراضي بدون مستغلين ومؤسسات محطمة .
وسيجي الفتح العربي الاسلامي ليجد بلادا مزدهرة في الفلاحة وتربية المواشي وذات تنظيمات قبائلية تشابه تنظيمات الدولة، لكن بدون ادارة وسلطة مركزية، اذ يختلف تعامل القبائل فيما بينهم أثناء السلم والحرب . وهذه التنظيمات هي التي مكنت الكاهنة البربرية من تنظيم وتعبئة القبائل لمقاومة الجيوش العربية الاسلامية . وقد استطاع العرب أن يستوطنوا المغرب لاسباب كثيرة، أهمها :

— انهم كانوا مجتمعا لا يختلف كثيرا في تركيبه عن المجتمع المغربي .
— انهم لم يفرضوا على الاهالي أشياء تغير من عاداتهم، حيث احترمو العلاقات الاقتصادية والتجارية القائمة فيما بينهم، بل وتبنوا أغلبها واحترموا كل القوانين والعلاقات الاجتماعية التي لم تكن

تعارض مع مبادئ الاسلام .

— انهم اتوا عند دخولهم المغرب بعلاقات اجتماعية لم تضع مصالح الملاكين الكبار في خطر .
وهكذا تعايش العنصران وصارا يندمجان تدريجيا .

تكوين الدولة المغربية

أتى ادريس الاول سنة ٨٨٧ ميلادية ملتجئا الى المغرب فقبناه زعماء القبائل البربرية لانتمائه الى سلالة النبي وخاصة لان له مؤهلات تجعله المرشح الاول لبناء الدولة المغربية المستقلة عن دولة الخلفاء في الشرق والتي ستحتفظ بروءساء القبائل كأعمدة للدولة الجديدة . ومن هذا التاريخ برزت شخصية الشعب المغربي ذي الديانة الواحدة والمصالح المشتركة . ولعله من مزايا قدوم ادريس الى المغرب انطلاقة الدولة التي احتفظت بطابعها الوطني خلال قرون طوال وجعلت المغرب يشق طريقه الى التطور مثل باقي شعوب البحر الابيض المتوسط .

أخذ المغرب تحت حكم الادارة القالب الاساسي لتنظيماته الفلاحية والصناعية والتجارية ونظام الدولة المركب من ادارة مركزية وادارة محلية تتمثل في شخصية رئيس القبيلة ، ونظام الامن والدفاع عن الحدود الذي يسهر عليه جيش يتألف من المتطوعين المبعوثين من القبائل . ان دولة الادارة لم تغير شيئا من التقاليد والعادات القبلية ، بل ساعدت على تنظيم هذه القبائل ضمن اطار الدولة الجديدة مع المحافظة على شخصيتها وتطوير وسائل انتاجها وعلاقاتها الاقتصادية . استمر المغرب على هذا الشكل خلال السنين التي مرت بعد حكم الادارة وتحت حكم رؤساء عرب آخرين ، مثل الفاطميين والمرابطين والموحدين والوطاسيين والسعديين ، ثم دولة العلويين . وكل دولة من هذه الدول كانت تحل محل الدولة السابقة نظرا لضعفها ، الشيء الذي لم يكن المغاربة يقبلوا به وخاصة رؤساء القبائل منهم وأصحاب المصالح الكبرى الذين عرفوا فيما بعد بالاقطاعيين . وهذه الظاهرة تكون عنصرا هاما في سيكولوجية الشعب المغربي طوال تاريخه حتى اليوم ، وهذه الظاهرة ناتجة أولا عن الرغبة في الدفاع عن المصالح الخاصة وكيان الدولة ، وثانيا عن القيام باخضاع مناطق مجاورة . . وكانت سببا في التطور الصناعي والزراعي والتجاري والعمراني للبلاد . لقد كان احتلال اسبانيا وجنوب فرنسا قد تم بارادة السلطة العربية المركزية في الشرق العربي ، لكن بجيوش أغلبها من المغرب . الا أن احتلال اسبانيا من طرف المرابطين والموحدين وكذلك احتلال الجزائر وتونس وتحطيم دولة غرب افريقيا (من طرف السعديين) كانت نتيجة السياسة العسكرية للدولة المغربية .

وكانت هذه السياسة العسكرية تتخذ الدين مبررا لها . . أما الدافع الاقتصادي ، فلم يكن في ذلك الحين أساسيا ، اذا نحن استثنينا الغنائم التي يستولي عليها الجيش بعد انتصاره ، لان المغرب لم يكن لديه اقتصاد وصناعة تدفعه الى البحث عن موارد وأسواق خارج حدود بلاده .

المغرب في القرون الوسطى

عرف المغرب منذ احتلاله لاسبانيا وغزوه افريقيا الغربية تطورا كبيرا في الصناعة والتجارة والعمران ، وفي العلوم والفنون حيث نشأت أغلب المدن الهامة التي كانت تنافس العواصم المتحضرة في الشرق العربي والاندرلس . . خلال هذه الفترة أى تحت حكم المرابطين والموحدين . كما تطورت الحرف والتجارة وأقيمت الطرق بين المدن الرئيسية كفاس ومكناس وسلا ومراكش وتافيلالت وطنجة وبين المناطق المجاورة للمغرب في الجنوب والشرق ، وقوى الاسطول التجاري والعسكري في البحر الابيض المتوسط وتمكن التجار المغاربة من ربط صلة تجارية بين افريقيا وأوروبا عبر اسبانيا . وكانت لهذه النشاطات التجارية تأثيرات على تطور الصناعة

والفلاحة... وأصبح المغرب يحتل مكانة مرموقة بين دول البحر الابيض المتوسط. وأول من استفاد من هذا الازدهار هم ملاكوا الاراضي الشاسعة وأصحاب السلطة الفعلية والاقطاعيون الذين ساعدوا على بناء المدن، كما شجعوا الصناعة والتجارة خدمة لمصالحهم كما سنرى.

لكن هذا التطور تعرض الى عراقيل وصعوبات داخلية وخارجية.

ولعل من أسباب عرقلة هذا التطور في الداخل، هو انتشار العائلات الشريفة التي أصبحت كل واحدة منها تتمتع بمناطق نفوذ كانت تستعمل أحيانا للسيطرة والاستيلاء على الحكم وكانت لها زعامات سياسية ودينية مما زاد في تعقيد الوضع وصعوبة القضاء عليه، وأدى الى ضعف السلطة المركزية في البلاد وانعدام الوحدة فيها، فتحولت كل الاهتمامات من البناء الى الدسائس والمؤامرات... فنتج عن ذلك محاربة بعض الدول الأوروبية للمغرب واقصائه من الميدان التجارى والملاحى.

ولقد صادفت هذه التطورات الداخلية، فترة انبعاث أوروبا وتطور دول شمال البحر الابيض المتوسط فلم يتمكن المغرب من الاستفادة من ذلك التطور ومسايرته.

وقد يرجع ذلك أيضا الى الحروب التي تعرض لها المغرب كاستمرار للحروب الصليبية في الشرق والتي أخذت طابعا سياسيا أكثر منه دينيا. والدول التي تزعمت تلك الحروب هي بالدرجة الاولى اسبانيا والبرتغال وهولاندة وانجلترا... وقد كانت هذه الدول تملك أسطولا عسكريا قويا مكنها من شن غارات مستمرة دامت عدة قرون، ومن القضاء على المنافسة المغربية التجارية والعسكرية في حوض البحر الابيض المتوسط، حيث احتلت بعض الموانئ وحاصرت الباقي منها، الشيء الذى دفع بسكان المدن الساحلية الى بناء الاسوار الوقائية والى الاعتكاف على تنظيم طاقاتها وأساليبهم الحربية... ويكفي أن يذكر المرء عمليات القرصنة كمثال على ذلك. أشار المهدي بنبركة الى خذه الفترة في ندوة اطارات حزب الاستقلال بتطوان سنة ١٩٥٨، حيث قال: "عندما بدأت الحروب الصليبية في بلادنا عقب انتهائها في الشرق العربي، ودامت مدة ٣٠٠ سنة جابه المغرب خلالها حروبا قاسية شنتها عليه دول اسبانيا والبرتغال وانجلترا وغيرها، وكانت هذه الحروب سببا في انقطاعه عن العالم وعن التطور وسببا في تحول الحرب ضد الجهل والجهاد لرفع منار الحضارة والعلم الى حرب ضد المستعمرين الدخلاء وجهادا لرفع راية الكرامة والعزة... وتحول قادة الفكر وأقطاب العلم الى قادة عسكريين لمغرب أصبحت رقعته اذ ذاك، عبارة عن معسكر كبير، وأصبح أبناؤه يقفون وقفة رجل واحد لرد جيوش الاجانب ولبناء الاسوار لجعل بلادهم حصنا منيعا على كل الدخلاء المهاجمين...". وجاء أيضا في نفس الندوة: "وأثناء تلك الفترة الحربية الطويلة أضاع المغرب فرصة الاستفادة من الانقلابات والتطورات التي كانت تقع على أبوابه بأوروبا، بسبب ذلك الستار الذى أحاط به نفسه دفاعا عن الاستقلال، ووقع الجمود في الفكر المغربي وتركب لدى المغاربة معقد الحذر والخوف ثم الرفض لكل ما هو أوروبى، الامر الذى جعلهم لا يفتتحون لاي مجال للثقافة الغربية...".

ان مركب الحذر ورفض كل ما هو أجنبي يرجع في الواقع الى التجارب التي خاضها المغاربة منذ التاريخ القديم ضد الرومان والوندال، وبقي ذلك المركب على مر العصور يكون أحد الخصائص النفسية ضد المغاربة.

الفصل الاول : المغرب تحت

الفصل الاول : المغرب تحت حكم العلويين

لقد كان أول احتلال أوروبي لمواني المغرب، هو احتلال البرتغال — أثناء الحروب الصليبية — لمدينتي أصيلة وطنجة في ١٤٧١م، وآسفي في ١٥٠٨م، وأزمور في ١٥١٣م... ولم يتسطع الوطاسيون مقاومة البرتغال نظرا لعدة أسباب، أهمها التدهور في الوضع الداخلي. وقد ساعدت مهادنة الوطاسيين للبرتغال على قيام الدولة السعدية سنة ١٥٥٤م، التي أراد لها رجالها أن تتزعم حركة التحرير ضد الاجانب وأن تسترجع المواني المغربية من سيطرتهم... إلا أنها لم تعمر طويلا، نظرا لعدم تمكنها من القضاء على نفوذ الزعماء السياسيين الدينيين، وبالتالي استرجاع الاراضي المغربية... فقامت على انقاض الدولة السعدية الدولة العلوية بزعامة مولاي رشيد عام ١٥٦٦م.

قيام الدولة العلوية

ورثت الدولة العلوية اثر قيامها متاعب السعديين، فقد أصبح الاتصال مع الجزائر — بعد أن وصل الاتراك الى الحدود الشرقية للمغرب — منعزما... كما حاول زعماء الزوايا وبعض رؤساء القبائل الانفصال على السلطة المركزية، فتحولت مناطق نفوذهم الى بلاد السبية، زد على ذلك الاثار السيئة التي تركتها حملة المنصور الذهبي على الجنوب. وقد تعرض محمد خير فارس في كتابه : (المسألة المغربية من ١٩٠٠ الى ١٩١٢) الى هذه الفترة، اذ قال :

"في عهد بني وطاس، بعد دولة المرينيين، صار قسم منهم يمارس استقلالاً فعلياً، ولم يستمر في الضرائب لدرجة أن هذه القبائل فقدت هذه العادة".

نجح مولاي رشيد في تهدئة الوضع في الداخل جزئياً، ثم استمر خلفه مولاي اسماعيل ١٦٧٢ — ١٧٦٧م في نفس الخطة، حيث استطاع اخضاع قبائل السبية فاستتب له الامر معتمدا في ذلك على الاكراه والضغط، الامر الذي جعل القبائل المغربية تنتهز أية فرصة، خاصة ضعف السلطة المركزية، للقيام بثورات ضد هذه السلطة. هذا وقد لعب الافارقة (السود) دورا فعالا خلال هذه الفترة، حيث اعتمد عليهم مولاي اسماعيل في تكوين جيشه، بالاضافة الى التحالف الذي عقده مع رؤساء القبائل الموالية له. اتجه مولاي اسماعيل بعد ذلك لمحاربة البرتغال وتمكن هو وخلفه، محمد بن عبد الله (١٧٦٧ — ١٧٩٧م) من طردهم واسترجاع مواني

واسترجاع موانيء المحيط الاطلسي ، كما عملا على تزويد قبائل الشمال بالاسلحة لمواجهة الاسبان .
استطاع المغرب أن يسترجع مكانته في الخارج ، خاصة بعد معركة وادي المخازن ، كما أن الاستقرار
في الداخل ساعد على التطور الصناعي وازدهار الحركة التجارية . واذا حاول حكام المغرب فرض وجودهم
العسكري والتجاري على الدول المجاورة ، فانهم لم يقوموا بأية محاولة مماثلة تجاه الشرق العربي .

تدهور العلويين وتقهر المغرب

عرفت السلطة المركزية ضعفا كبيرا بعد غياب محمد بن عبد الله ، فظهرت بوادر السببية من جديد ،
حيث " خرجت بعض القبائل عن طاعة السلطان " .. ولكن بالرغم من ذلك ، لم تقع أية محاولة جديدة
للسيطرة على الحكم ، نظرا للزعامات الداخلية التي تعرضت لها القبائل .. أضف الى ذلك استهلاك الطاقات
البشرية بسبب الحروب المتوالية التي قامت بها أو شاركت فيها . كما أن الحروب التوسعية التي حمل لواءها
المرابطون والموحدون لم تعد بالنفع على الشخص المغربي ، باستثناء بعض رؤساء القبائل الذين كانوا يطمحون
لتوسيع نفوذهم .

كانت هذه باختصار العوامل التي ساعدت الحكام العلويين على الاحتفاظ بالسلطة رغم ضعف شوكتهم
ولا بد هنا من الإشارة الى الانتكاسة التي عاشها المغرب خلال فترة حكم العلويين والى الخط العام الذي
انتهجه الحكام على التوالي :

فقد عاش المغرب أربعة قرون عرف خلالها الجمود الفكري والتأخر الاجتماعي والتقهر الاقتصادي ،
بالرغم من الاحداث والتطورات التي كانت تجري على أبوابه ، خاصة في الميدان الصناعي والعلمي ...
والسبب في ذلك يرجع الى الحكام أنفسهم الذين جعلوا من الحكم غاية لا وسيلة لتطور المجتمع المغربي
(باستثناء البعض منهم الذين ساعدوا على تهيين ظروف داخلية وخارجية لازدهار الحياة في البلاد) .
واذا كان الحكام العلويون يتحملون النصيب الاكبر والمسؤولية العظمى في تقهر المغرب ثقافيا
 واجتماعيا وصناعيا ، فان هناك عوامل أخرى ساهمت ، ولو بشكل غير مباشر ، في الانتكاسة التي حلت بالمغرب ..
وبالرغم من محاولة بعض المؤرخين الاوروبيين استغلال هذه العوامل أو بعضها للحط من الدور الذي لعبته
الدولة الاسبانية في تطور ، أو على الاصح في تأخر دول المغرب ... بالرغم من ذلك ، فانه يجب الإشارة الى
تلك العوامل التي يمكن اختصارها فيما يلي :

- ١ - الوضع الجغرافي الذي يجعل المغرب معزولا عن باقي الدول الحضارية ، فالصحراء من
الجنوب والمحيط من الغرب واسبانيا المتأخرة من الشمال والاستعمار التركي من الشرق .
- ٢ - الارتباط الروحي والديني بالشرق العربي واعتبار أن الحضارة لا تأتي الا منه .. وكان
آنذاك يزرع تحت الاستعمار العثماني الذي لم تكن حالته بأحسن من الحالة التي يعيش عليها المغرب .

الطبقة الاقطاعية كعرقلة للتطور

في هذه الفترة الطويلة من تاريخ الشعب المغربي تكمن أسباب التأخر التي أدت الى الاستعمار والتي
ما زالت آثارها السلبية تكون حجرة عثرة في انطلاق الشعب وفي بناء المجتمع المتقدم السليم . هذه هي
الوضعية الداخلية الناتجة عن ظروف داخلية وتطورات عالمية للدول الاوروبية لبحر الابيض المتوسط التي
تستوجب منا وقفة طويلة لفهم الاتجاه الذي أخذته الاحداث بعد حكم الحسن الاول وفرض الحماية على المغرب .
ان التركيب الاجتماعي بالمغرب لم يطرأ عليه تغيير منذ قرون ، وانما أخذت الفوارق لمختلف الطبقات

تتبلور وتزداد وضوحا مع مرور السنين، حيث تطورت الفئات المسيطرة على البادية، كما تطورت الفئات المسيطرة على الصناعة والتجارة. . رغم أن هذا التطور كان يسير ببطء نظرا للعوامل التي تعرضنا لها سابقا. لم يتمكن المجتمع المغربي من الاستفادة من التطورات التي عمّت أوروبا في بداية القرن السابع عشر واقتصرت على الامكانيات المحلية المحدودة، لان الطبقة الاقطاعية ذات النفوذ والسلطة الكبيرين، كانت تقف حاجزا بين التأخر والتطور، كما كانت ولا زالت تلعب دور الحارس الذي يمنع ظهور أي طبقة (بورجوازية) قوية قادرة على الاطاحة بها وتحويل مركز الثقل في الاقتصاد الوطني من البادية الى المدينة، أي خلق صناعة تلعب الدور الاساسي، عوضا عن الفلاحة، كما حدث في أوروبا. ولعل ذلك يرجع الى اختلاف الطبقة الاقطاعية والبورجوازية المغربية في طبيعتها عن مثيلتها في أوروبا، ففي هذه الاخيرة كان الاقطاعي يملك نظريا وفعليا خادمه الفلاح الذي كان يضطر الى دفع مبلغ معين مقابل تحرير نفسه من العبودية. ومع مرور الزمن استطاعت الطبقة المتحررة أن تؤسس المدن وتجعل منها مقرا لها، ثم عملت على تكوين مشاريع صناعية وتجارية التي كانت اللبنة الاولى في نشوء الطبقة البورجوازية الأوروبية. . وكان عليها بطبيعة الحال أن تستعد للدفاع عن مصالحها بل لتطورها. وقد نجحت في اضعاف الاقطاعية وفي الاستيلاء على الاراضي والمراكز الحساسة في الدولة، ولعل أحسن مثال على ذلك هو الثورة الفرنسية (١٧٧٩).

أما في المغرب فلم يحصل تطور مشابه، اذ استطاعت الاقطاعية الاحتفاظ بمراكزها القوية وبسيطرتها على السلطة وأراضيها، ولم تجد أمامها أي منافس في ملكية هذه الاراضي قبل الاستعمار الأوروبي، وهكذا بقيت تتمتع بنفوذها القوي سواء في الدولة أو في التجارة. وقد دفعتها الحاجة لبعض المنتوجات الكمالية الى تأسيس المدن التي أصبحت مركزا لصناعة تلك المنتوجات. وبواسطة السلطة السياسية المركزية وتكوينها جيش الدولة، تمكنت من السيطرة على فئة الصناع والتجار ومراقبتهم مراقبة مشددة. وهكذا بقيت هذه الطبقة المسيطرة على الانتاج الفلاحي وبالتالي على السوق الوحيدة المفتوحة أمام صناعة المدن بسبب انعدام سوق خارجية تساعد على تسويق البضائع المغربية. وبفضل تحكمها في مصير المدن، تمكنت أن تحول بين الحضريين وبين توسيع مجالاتهم الاقتصادية في البادية، مما أدى الى حدوث اصطدامات وتمردات عنيفة بين التجار والصناع من جهة وبين الاقطاعية من جهة أخرى. . كما حدث في كلا القرنين السابع عشر والثامن عشر، الا أن تلك التمردات لم تتمكن من تغيير الوضع داخل البلاد، لانها ظلت معزولة وضعيفة. وبذلك لم تتمكن من السيطرة على الارض وعلى أجهزة الدولة، بل لم تكن تهدف الى تلك السيطرة لانها لم تكن تملك القوة الكافية لمواجهة الاقطاع.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فان الفلاح المغربي لم يكن هو وأرضه ملكا للاقطاع مثلما كان الامر في أوروبا وانما كان يتمتع دائما بحريته الشخصية (قانونيا) بالرغم من استغلاله من طرف سيد الارض، وبالتالي فانه لم يكن مضطرا لشراء حريته وهجرة موطنه باحثا عن أماكن أخرى لمزاولة نشاطه. وهكذا ظل تحت تصرف الاقطاعية وفي خدمتها غير مهتم بأي محاولة أو مشاركة في تغيير الوضع الاجتماعي المغربي.

وقد ورد في (التركيب الاجتماعي والاقتصادي للمجتمع المغربي) وصف مختصر للوضع القديم: "يتميز الاقتصاد المغربي القديم بغلبة القطاع الفلاحي على بقية القطاعات الاخرى، فقد كان يستوعب ٩٠ ٪ من مجموع السكان. والى جانب القطاع الفلاحي، كان هناك قطاعان آخران، هما: الصناعة التقليدية وقطاع التجارة. وكانت الاشكال الفلاحية تنقسم الى ثلاثة: أراضي الجيش وأراضي الجماعات والارض الخصوصية.

وعند التحليل، نجد أن هذه الاشكال الثلاثة كانت تخدم وتدعم مصالح الحكم الاقطاعي الاوليفارشي ومصالح القواد ورجال السلطة في البادية، لان أراضي الجماعات التي كان أعضاء القبائل نظريا يملكونها سرعان ما تتحول عند التوزيع الى أراضي يستفيد منها رئيس القبيلة وأعوان الحكم

بالدرجة الاولى . أما الفلاحون فانهم يتحولون الى "خماسة" و"خبازة" يشتغلون ويتعبون لفائدة رئيس القبيلة وممثلي الاقطاع .

الاقطاعية كركيزة مادية وأيديولوجية للسلطة

كانت السلطة تعتمد في استمرارها ووجودها على الطبقة الاقطاعية، لانها تملك أكبر وسائل الانتاج (الاراضي) فحسب، ولكن لانها كانت أكبر مغدى للجيش المغربي من حيث العناصر المحاربة . . فمنذ عهد الكاهنة حتى بداية الحماية، كانت أغلبية الجيش تتكون من المتطوعين من أفراد القبائل التي كانت تتحمل نفقاتهم قصد الدفاع عن وحدة التراب وحماية البلاد من الغزو الاجنبي . ولا يهمننا هنا التعرض الى خصائص هذا الجيش، لكن الشيء الذي تجدر الإشارة اليه الان، هو الاستفادة التي كانت تجنيها الاقطاعية من وراء ذلك . . فمشاركتها في الجيش كانت تضمن لها المحافظة على كيانها واستمرارها أولا، وتعطيها وسيلة الضغط على رئيس الدولة ثانيا . وكانت هناك محاولة للتخلص من ضغط القبائل وذلك بتكوين جيش من الافارقة (السود) يكون ملازما للسلطان، مهمته المحافظة على استقرار الوضع في الداخل (كما حصل في عهد مولاي اسماعيل) . . الا أن هذا الجيش لم يستعمل لنفس الغاية التي أسس من أجلها وانما استغل في المناورات الداخلية في القصر .

ويمكن القول أن البورجوازية (التجار والصناع) لم تكن صاحبة نفوذ قوى في البلاد، وانما الطبقة الاقطاعية هي التي كانت تملك السلطة الفعلية . أما باقي الطبقات الشعبية من الفلاحين الصغار والمستخدمين في القطاع الفلاحي، فقد كانوا مستغلين من طرف رؤساء القبائل والاقطاعيين، وكانوا يمثلون الطبقة الفقيرة الكادحة . وللسيطرة على هذه الطبقة، كانت تستعمل عدة وسائل، منها الخرافات والاساطير التي استغلت الدين لابتعاد الشعب عن مفاهيم العدالة الاسلامية وعن القيم النبيلة للوطنية . جاء في ندوة الاخ المهدى بتطوان، سنة ١٩٥٨ :

"هناك ظاهرة أخرى من ظواهر تأخر مجتمعا وهي عبادة الاصنام، وهذه العبادة ناتجة عن الافق الضيق الذي كان يحصر التفكير المغربي، فقد بلغ الاعجاب بأبطالنا في مقاومة الاسبان والبرتغال والانجليز درجة كبرى حتى أصبح هؤلاء الاشخاص - بعد وفاتهم - محل عبادة وتقديس" . ولم تكن هذه الظاهرة، "ظاهرة السادات"، خاصة بالشعب المغربي فحسب، وانما كانت تعم العالم الاسلامي كله - "استغلال الدين الاسلامي لصالح الاقطاع - حيث ظهرت الزوايا و"السادات" و"الاشراف الوسطاء" بين الله وبين الناس وأصحاب البركات الى غير ذلك . وهكذا استغلت الشعارات الدينية للسيطرة على المواطنين وتسخيرهم لاغراض الاقطاعية والرجعية .

ولم ينج العالم المسيحي من عواقب هذه الظاهرة التي لم تكن تختلف في محتواها، بل حتغ في أسلوبها عنها في العالم الاسلامي .

وننتج عن هذا التزوير والتغليب انحراف في العقيدة ومفاهيم الدين، كما تسبب ذلك في تكوين فلسفة الانسان في مواجهة الحياة . . ومن أخطر رواسبها التعصب للعقائد المنحرفة الراسخة في الاذهان، والرجعية في التفكير، والتعصب للزوايا وتقديس الشرفاء . . قال المهدي في نفس الندوة :

"اتصف بالتعصب رجال الدين المثقفين، وكان يطلق عليهم اسم "العلماء"، ورفضوا الافكار والوسائل الجديدة . . ."

كما أن الخضوع لاصحاب السلطة والاستسلام لوضعية الظلم الاجتماعي . . . من رواسب هذه العملية

التي سخرت الدين لصالح الاقطاع .

في هذه الظروف الصعبة، حاولت البورجوازية - التي لم يكن لها تأثير في ميزان القوى بالبلاد ولا نفوذ لها اقتصادي يذكر، ولا سلطة سياسية... - تحقيق انتصار على الاقطاع والرجعية واعطاء المغرب تنظيمًا دستوريًا. لكن هذه المحاولة فشلت بسبب ضعف البورجوازية وقوة الطبقة الاقطاعية من جهة، ولأنها لم تجد سوى الشباب لتبنيها من جهة ثانية، ولأن التدخل الاجنبي قطع عليها الطريق من جهة أخرى.

وقد رأينا فيما سبق خاصيات "العلماء" الذين لا يمكن وصفهم بغير العقلية الرجعية، لقد ساهموا في المحافظة على الثرات المغربي الاسلامي بطريقتهم الخاصة، أي ساهموا في بقاء الاوضاع القائمة، فأبعدهم جمودهم ورجعيتهم عن خوض معركة الاصلاح وقيادتها وأبعد التحوير والتزييف عن الدين، فكانوا بصفة أو بأخرى، حلفاء الاقطاع ضد أي تحرر فكري أو اجتماعي. لقد حاولوا المحافظة على استقلال البلاد بطرق عتيقة أدت في النهاية النتيجة معكوسة. وكان لروءساء الزوايا منهم الذين قاموا بدور سياسي، أثر بالغ في خلق العراقيل التي جمدت التطور بالبلاد، ولا يختلف عن هذه المجموعة من أدوات الرجعية والاقطاع الا القليل من العلماء الذين بقي الشعب مدينًا لهم، أمثال أبو شعيب الدكالي ومولاي العربي العلوي.

الفصل الثاني : التوغل الاستعماري

بروز الظاهرة الاستعمارية

في الوقت الذي قطع المغرب صلته مع الخارج نتيجة التطورات التاريخية التي رأينا بعضها، عمت أوروبا تطورات قلبت الأوضاع فيها. لقد أدى تكوين الطبقة البورجوازية في الميدان الاقتصادي والاجتماعي، كباقي الميادين، الى تغييرات جذرية، كان أهمها بناء صناعة عصرية تعتمد على الاكتشافات العلمية والتقنية كآلة البخار وآلة الطباعة والطاقة الكهربائية ومحركات ديزل... الخ. سخرت البورجوازية هذه الاكتشافات لبناء صناعة حديثة عم تطورها بسرعة أغلب المناطق المعدنية. وأدى هذا الاتجاه في الاقتصاد الى خلق وتطوير المجتمع الرأسمالي... كما نمت الفوارق الطبقيّة وقويت تشكّلاتها بسرعة التطور الاقتصادي. وبناءً على التناقض الكامن في المجتمع الرأسمالي، فلم يلبث نظامه في أوروبا أن تعرّض في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الى أزمة التضخم في رأس المال وفي تراكم الانتاج، نظرا لقلّة الاسواق ونظرا لتنظيمات وتحركات الطبقة البروليتارية النامية التي حرّمتها النظام الرأسمالي من كل الحقوق، باستثناء ما يحافظ على قوة عضلاتها وسلامة صحتها لتستمر في الانتاج الاستغلالي، الشيء الذي كان يقدّق على أرباب المعامل وملاكى وسائل الانتاج أرباحا خيالية أدت في النهاية الى تضخم خطير في رأس المال. كما أن القوة الشرائية لأكبر طبقة في المجتمع الرأسمالي الأوروبي، أي طبقة العمال والفلاحين، كانت ضئيلة مثل ضالة مدخولها. تكمن في عناصر هذه الازمة أهم الأسباب التي دفعت بالنظام الرأسمالي للجوء الى نظام الاستعمار وتطويره وذلك للخروج من الازمة التي كانت تهدّد أوروبا الرأسمالية بالاقتناق، خاصة بعد أن وضح كارل ماركس وأصدقاؤه في منشوراتهم حقوق وواجبات الطبقة الكادحة بالتحليلات الفلسفية والاقتصادية وأخذت هذه المفاهيم تعم الطبقات الكادحة بأوروبا وتقوى وتوحد نضالها. ومن أجل ذلك، لجأت أوروبا الى تسخير جزء من الطاقات المتضخمة في السيطرة على بلدان القارات الأربع: آسيا، أستراليا، إفريقيا وأمريكا اللاتينية لتجد حلا لكل مشاكلها المؤقتة.

— توظيف الفائض من رأس المال المتضخم في فتح وتجهيز المستعمرات واستغلالها ارضا لرغبات أرباب رأس المال للقيام بالمشاريع الضخمة التي تعود على أصحابها بالأرباح الخيالية.

- تحسين حالة العامل الاوروبي الذي يستفيد من مردود المستعمرات استفادة رئيسية لكل المواطنين الاوروبيين .
- ابعاد خطر الحرب من أوروبا بتسخير العسكريين في الفتوحات وتحويل اهتمامهم الى خارج أوروبا .
- استغلال الموارد الطبيعية والبشرية للدول المستعمرة بدون مقابل .
- احتلال المناطق الاستراتيجية والممرات التجارية والممرات التجارية العالمية .
- الحصول على أكبر رقعة ممكنة وأكبر عدد من الشعوب لبناء مناطق نفوذ ثقافي وتصدير حضارة الوطن الام اليها لربطها ارتباط نهائيا به .

التسرب الاستعماري الى المغرب

وهكذا بدأ التسابق على المستعمرات وتوزيع العالم الى مناطق نفوذ اقتصادية وسياسية، أو مناطق خاضعة كلياً الى إحدى الدول الأوروبية. والمغرب بحكم وضعه الداخلي والدولي وبحكم موقعه الجغرافي، قد كان من أحد البلدان التي استعمرت في آخر مرحلة التسابق على المستعمرات، كما أنه كون مشكلة لأوروبا هددتها بشبح الحرب مدة عشرين سنة، الى أن أدت مع بعض المشاكل الأخرى الى الحرب العالمية الأولى بعد عامين من احتلاله.

بدأ تسرب الأجانب الى المغرب بطريقة كلاسيكية، استعملت في أغلب البلدان التي اغتصبها الاستعمار، وذلك بواسطة رجال التجارة والصحة والبعثات الدينية، وكوّن هؤلاء طليعة الباحثين الذين مهدوا الطريق الى حكوماتهم بدراسة البلاد وتقديم تقارير تعبر عن واقعها، وكانت هذه التقارير تقدم للجمهور، وبعضها يبقى سرى. تسابقت إنجلترا وفرنسا وألمانيا وإسبانيا في هذا الغزو الأولي الذي أعطوه صبغة شرعية وضمنوه باتفاقيات مع المخزن المغربي - في عهد عبد الرحمان (١٨٥٩ - ١٨٧٣م) - التي أعطت امتيازات لهذه الدول في التجارة بالمغرب. فقد بدأ التسرب من مواني طنجة والعرائش وسلا وتطوان والدار البيضاء والجديدة والصويرة. ومن هذه المدن، استطاع الأوروبيون أن يتسللوا تدريجياً الى المدن الداخلية بمساعدة السماسرة المغاربة الذين تمتعوا بجنسية وحماية أوروبية نتيجة اتفاقية الامتياز التجاري. وكانت هذه العملية من أحد العوامل التي ساعدت على خلق الفوضى والحد من سلطة السلطان.

سيطر الأوروبيون على التجارة الخارجية والملاحة المغربية، مما جعل البورجوازية المغربية لا تستفيد من تطور التجارة الخارجية رغم انطلاقها من جديد. كما أن خزانة الدولة لم تحصل على مورد كبير، لأن الجمارك كانت مقيدة باتفاقية التجارة. ومن نتائج هذه التجارة الأجنبية بالبلاد، غزو السوق الداخلية ومنافسة الصناعة المحلية التي لم تكن في مستوى الصناعة العصرية الأوروبية ولم تستطع الصمود أمامها، فحكم عليها بالجمود، فجمدت بالتالي القطاعات الاقتصادية والاجتماعية المرتبطة بها.

وقد عملت كل من إيطاليا والدول الأربع الأخرى على توسيع مصالحها في المغرب لايجاد مبرر للسيطرة عليه. وهكذا تقربت إيطاليا الى السلطان وادرة المخزن وكادت أن تحصل على حماية المغرب بخداعها الملك الحسن، لكن مساعيها قد أخفقت. أما ألمانيا وبريطانيا فقد عمدتا الى تقوية تجارتها في المغرب، في حين أن إسبانيا وفرنسا عملتا على خلق مصالح اقتصادية بالبلاد، حيث سيطرت إسبانيا على سبتة، وفرنسا على الجزائر وصحراء جنوب المغرب، وبذلك أصبحت تطوق المغرب من جوانبه البرية. وقد استعملت هذه الحدود المشتركة للتسرب الى المغرب، ولم يستطع الحكم رد التسلل الاجنبي من الجزائر وخاصة بقيادة الضابط ليوطي، لأن السلطة المركزية كانت عاجزة عن المواجهة. ومما شجع التدخل الاجنبي

وسهل مهمته وأضعف امكانية الدولة في مواجهته، التفكك والفوضى في أجهزة الادارة والجيش والمالية.

الاتفاقيات الاستعمارية

أ) اتفاقية طنجة :

رغم أن السلطان عبد الرحمان (١٨٥٩ - ١٨٧٣ م) كان قد أسس جيشا قويا ومنظما، فانه لم يستطع القضاء على ثورة قبائل السبيبة، بل ان رقعة هذه القبائل اتسعت، مما أضعف سلطة السلطان وموارد المخزن المالية. وقاومت هذه القبائل التسلل الاجنبي منعزلة عن بعضها، الشيء الذي سهّل عملية التوسع الاجنبي في تراب المغرب، وقد أعطت لحكومتى فرنسا واسبانيا المبرر لفرض اتفاقيات على السلطان، كلها عبارة عن تنازلات السلطة المخزنية عن حقوق وطنية لصالح الاجنبي. ففي اتفاقية طنجة، تخلى السلطان عن عبد القادر قائد الثورة الجزائرية ضد الاستعمار الفرنسي الذي كان قد قدم الولاء لسلطان المغرب، فأصبح السلطان بمقتضى هذا الولاء مسؤولا قانونيا عن أمن عبد القادر واستقلال القبائل الجزائرية التابعة له. ورغم هذا فان السلطان قد تخلى عنه في اتفاقية طنجة واعتبره خارجا عن القانون المغربي، الشيء الذي حرم حركة عبد القادر التحريرية من المساعدة العسكرية والموارد التي كان على المغرب أن يقدمها له... فخان السلطان ثورة الجزائر وتخاذل أمام الفرنسيين، ذلك لانه لم يرجع الى القبائل لمقاومة الاستعمار، في الوقت الذي نرى فيه أن القبائل بدون استثناء كانت تنضم دائما الى السلطة المركزية في حالة خطر احتلال اجنبي : لقد فضل السلطان الخضوع أمام شروط المستعمر الاجنبي ليتسنى له مقاومة قبائل السبيبة والقضاء عليها.

ب) اتفاقية لالة مغنية :

ولهذا السبب أيضا، وقع السلطان اتفاقية لالة مغنية سنة ١٨٤٥م بشأن الحدود. وكان الفرنسيون قد احتلوا جزءا كبيرا من المغرب الشرقي، وضم هذا الاحتلال كل الاراضي الشرقية منها حتى مدينة وجدة... كما احتلوا مدينة الجديدة. ومن أجل تحرير مدينتي وجدة والجديدة وقع السلطان اتفاقية ذات شروط قاسية كانت في الواقع أول فرصة جدية أعطيت للاستعمار ليحصل على مطامعه. لقد حددت هذه الاتفاقية الحدود بين المغرب والجزائر لمسافة ١٠٠ كلم بدأت من قرب مدينة وجدة... أما المسافة حتى الصحراء، فقد حددت حسب القبائل (قبائل فكيك) ... وأما الصحراء فلم يحدد فيها شيء. وتركت هذه الاتفاقية حق متابعة القبائل المغربية في التراب المغربي من طرف الجيوش الاستعمارية بالجزائر، وأعطى هذا البند لفرنسا امكانية التوغل في الاراضي المغربية.

ج) اتفاقية مدريد :

عند ما تولى الحسن السلطة (١٨٧٣ - ١٨٩٤ م) قام بمجهودات كبيرة للنهوض بالمغرب وابعاد الخطر الاجنبي، وعمل على توحيد الجيش وجعله تحت قيادته الفعلية مع وزير الدفاع، ونزع هذه المسؤولية من يد من كانوا يساءثرون بها من رؤساء القبائل، كما عمل على بناء معمل للأسلحة الخفيفة وشراء قطع من السلاح الثقيل وثلاثة سفن حربية وأرسل بعثة لدراسة العلوم العصرية في الخارج، وأدخل اصلاحات في أجهزة الدولة ونظام الضريبة، ووفر شروط انعاش الصناعة والتجارة الداخلية، وقام بانجاز المشاريع العمرانية لتوفير

وسائل المواصلات، وقضى وقتا طويلا في ضم رؤساء الزوايا والقبائل الثائرة بمهادنة بعضهم واخضاع البعض الآخر... فخفف بذلك كثيرا من الصعوبات التي تسببها قبائل السبيبة للمخزن. كما شرع في توزيع السلطة على الوزراء واستشارة العلماء و"الاعيان" ورؤساء القبائل في شؤون الدولة لتوحيد القوى في الداخل... ويرجع ظهور هذه المبادرة الاولى للحكم الدستوري في المغرب الى نفوذ المسؤولين الكبار في المخزن الذين كانوا من الاعيان، وبحسب المفهوم العلمي من البورجوازيين. كما يرجع ذلك الى مجهودات الالمانيين الذين كانوا يهدفون الى ابعاد النفوذ الفرنسي عن المغرب، ومساعدة هذا الاخير على تكوين دولة قادرة على الوقوف في وجه القوى العسكرية الفرنسية، ليخلو لهم المجال للانفراد بالمصالح الاقتصادية فيه. وسدد السلطان الديون المالية التي فرضت على المغرب في عمليات عسكرية جائرة، كما توفر للمغرب فائض مالي. وفي الميدان الخارجي، قام السلطان الحسن وحكومته (المخزن) بنشاط دبلوماسي واسع للحد من التسلل الاستعماري والتخلص من نفوذه بالمغرب وتغيير وضعية المحميين لقطع الطريق في وجه التسلل الاجنبي، فحصل على عقد مؤتمر مدريد ١٨٨٤، رغم معارضة بعض الدول الأوروبية التي شاركت فيه، في النهاية، حتى لا تترك الدول الاخرى تبعدها من حقها في توزيع النفوذ والمصالح.

لم تعكس اتفاقية مدريد ما كان يصبو اليه السلطان مولاي الحسن، لان اهتمام الدول الأوروبية لم يكن يهدف الى مساعدة المغرب للخروج من أزمتته وتخلفه، بل كان اهتمامها الوحيد هو الحصول على نفوذ أكبر بالمغرب ومحاولة الانفراد به، عن طريق مساومات ومفاوضات ثنائية بين الدول الاستعمارية. وقد زاد هذا الميثاق في ربط المغرب بالمصالح الأوروبية والتدخل في شؤونه الداخلية، أي في شؤون التجارة والملاحة والعدالة. لقد كان الغرض من مؤتمر مدريد هو عدم السماح لاحدى الدول الأوروبية، وخاصة فرنسا أن تنفرد بتقوية نفوذها بالمغرب، ومن ثم السيطرة عليه... فنص على منح الدول امتيازات متساوية وتدويل هذه المصالح. ونظرا لعدم استكمال المغرب لوحده، فان هذا المسعى يعتبر خطأ كبيرا لانه لغت أنظار الدول الأوروبية الى قيمته كمستعمرة من حيث موقعه الاستراتيجي وثروته المعدنية وضعف الحكم فيه.

ان أهمية المغرب بالنسبة للدول الاستعمارية تتجلى في :

— أن المغرب كجزء من مسألة البحر المتوسط، يهم الدول الأوروبية، لان السيطرة عليه تؤثر في ميزان القوى السياسية والعسكرية في هذه المنطقة، ولهذا فهو مهم بالدرجة الاولى بالنسبة لفرنسا واسبانيا وانجلترا وإيطاليا.

— وهو جزء من الطرق العالمية والمنافذ البحرية، ولهذا فالمغرب يهم الدول التجارية والاستعمارية.

— وهو جزء من المسألة الأفريقية، ذلك أن مصير المغرب في الواقع قد تقرر بصورة نهائية عندما انتهت تصفية باقي القارة الأفريقية ووصلت القوى الاستعمارية الى الحدود المغربية الشرقية والجنوبية، وكانت الاساطيل الأوروبية تحوم حول شواطئه في الشمال والغرب.

ويفسر هذا الاهتمام بالمغرب موقعه الجغرافي، ذلك أن للمغرب شواطئ ذات قيمة استراتيجية واقتصادية كبيرة، ويشرف بشواطئه على أكبر طرق للملاحة بين الشرق والغرب وأوروبا وأفريقيا وأمريكا الجنوبية. وبهذه الطرق يكون ميدانا حساسا بالنسبة للتجارة الخارجية الأوروبية، كما يكون المغرب الجسر المناسب للسيطرة الاستعمارية بين أوروبا والقارة الأفريقية بمضيق جبل طارق وموانئه على المحيط الاطلسي واشرافه على الصحراء.

المغرب بما كان عليه من ضعف وبموقعه الممتاز وبما كان له من سمعة في غنى أراضيه ووفرة ثرواته المعدنية... في وقت بلغ فيه التنافس الاستعماري أشده، كان لا بد أن يصبح ميدانا هاما من ميادين التنافس الاستعماري. ومما كان يثير شهوات الرأسمالية الأوروبية أنه لم يكن في المغرب طرقا ولا موانئ صالحة، مما

كان يفتح أمام الراسمال الاوروبي امكانيات واسعة للاستغلال في مشاريع انشاء الموانب والطرق والسكك الحديدية والتغراف وغيرها . .

تدهور الدولة العلوية وتعميم الثورة

(أ) تدهور الدولة :

تولى "بأحمد" السلطة سنة ١٧٩٤م بعد وفاة الحسن الاول ، وقد استطاع أن يحافظ على منجزات سلفه . ولما توفي بأحمد سنة ١٩٠٠ ، تولى السلطان عبد العزيز ، وهو في العشرين من عمره ، وكان تحت نفوذ الاجانب وخاصة البريطانيين والفرنسيين الذين كانوا بمثابة مستشاريه . وكان عبد العزيز متأثرا بالحضارة الغربية ، فكان ينفق أموالا طائلة ليعيش حياة أوروبية . . وقد جلب من جملة ما جلب أدوات لهو كثيرة أقسدت سمعته وأفلست خزانة الدولة في نفس الوقت . كما أنه عزم على تنظيم الدولة وأجهزتها على الشكل الاوروبي ، فوجد في المنبهي خير عون له في هذا المجال ، حيث كان يحاول هذا الاخير (الذي كان يشغل منصب وزير الخارجية) تحقيق طموح البورجوازية في تنظيم الدولة على أسس عصرية تسمح لها بتوسيع سلطتها ونفوذها الاقتصادي . وهكذا تم ابعاد العديد من العناصر التقليدية من الحكم سنة ١٩٠٢ ، وتم اسناد جزء من السلطة الى أفراد المخزن الذين أصبحوا يكونون مؤسسة على شكل حكومة عصرية . كما استعان بعدد كبير من الضباط الانجليز والفرنسيين لتدريب الجيش المغربي . . وقد شكلت هذه العملية الاخيرة خطأ فادحا ، ذلك أن المطامع الاستعمارية في المغرب لم تعد خافية على أحد ، واسناد مهمة تدريب الجيش الى ضباط أجانب ، يعني تقديم فرصة ثمينة لهؤلاء الضباط لتوسيع التسلل الاجنبي حتى داخل جهاز الدفاع ، وبث القلق والحذر في نفوس رؤساء الزوايا وزعماء القبائل الذين يرون في هذا العمل خيانة للاستقلال .

وقد استمر عبد العزيز في استشارة العلماء والاعيان والقواد الكبار في شؤون الدولة ، كما كان يفعل سلفه (الحسن الاول) وأدخل اصلاحات في الادارة والنظام الضريبي . . . غير أن هذا الاصلاح لم يكن يندرج في اطار سياسة لتنمية موارد البلاد ، اذ بقيت الدولة أداة استهلاك أكثر منها أداة تنمية وإنتاج .

لقد تسببت البورجوازية المغربية بقيادة المنبهي ، بناء على ضعف سلطتها ومكانتها في محاولة سابقة ، في انتكاسة أدت عواقبها الى احتلال المغرب وتجميد تطوره لمدة ٤٤ سنة . أما عبد العزيز فلم يكن مؤهلا لحمل لواء الاصلاح ، بحكم انتمائه الى دولة طبيعة السلطة فيها اقطاعية رجعية . لقد أعطت محاولة الاصلاح ، فرصة ثمينة للاقطاعيين والرجعيين لتثبيت سلطتهم ولو على حساب المخزن ، كما كانت هذه الاصلاحات مفتاح التدخل الاجنبي ، اذ عارضتها الدول الاستعمارية بشدة ، وخاصة فرنسا التي استغلته لاذكاء نار الفتنة والفوضى في البلاد . ولما عزم المخزن على جبي الضرائب سنة ١٩٠٤ ، اندلعت الثورات في المغرب ، فأطاحت بهيئة الحكم ، وكادت أن تطيح بعرشه .

(ب) السبيبة بالمغرب :

قبل أن نتعرض الى العواقب الذي أدى اليها تعميم الثورة في المغرب ، يجب أن نتعرض باختصار الى مفهوم السبيبة الذي حوره جل المؤرخين الاوروبيين .

قبيلة السبيبة هي التي لاتخضع للسلطة المركزية ، ولا تدفع الضرائب للمخزن ، لكنها تعترف بالسلطة

الدينية للسلطان وتحترمها.. كما كانت هذه القبائل تنضم الى المخزن لمحاربة الاجنبي، وكانت هذه القبائل أيضا تنضم الى قبائل المخزن (أى القبائل الخاضعة لسلطة المخزن)، كلما طرأ تقدم على البلاد في النواحي الاقتصادية والاجتماعية والادارية والعسكرية.. اذ كان هذا التقدم ينعكس عليها وتفضل الاستفادة منه.. وعلى العكس، فان ضعف الدولة يؤدى الى تقوية السبيبة وتوسيع رقعتها. ولم تكن هذه القبائل تشكل، باستمرار، خطرا على الحكم المركزى، لان رؤسائها الاقطاعيين وزعماء الزوايا لم تكن لهم دائما الرغبة في محاربة الحكم والاطاحة به وانما التخلص من سلطته.

هذه طبيعة قبائل السبيبة حتى سنة ١٩٠٢. أما تفسير هذه الظاهرة، فمرده الى التركيب الهيكلي للقبيلة في المجتمع المغربي القديم. فقد كانت القبيلة تخضع للاقطاعي اما قائدا أو رئيسا، حسب القوانين الجارى بها العمل. وكان هؤلاء الزعماء يلجأون الى الاستقلال عن السلطة المركزية والاستفادة من سلطتهم المحلية بانفراد.. كما أن نمط عيش هذه القبائل كان يسمح لها بالعصيان؛ فمن حيث التشريع كانت للقبيلة أعرافها وتقاليدها التي تجعلها في اكتفاء قانوني، واقتصادها كذلك كان يعتمد على الاكتفاء الذاتي.. كما أن الطبيعة الوعرة لمناطقها وصعوبة المواصلات وضعف السلطة المركزية وكون رجال القبائل فلاحين ومحاربين في نفس الوقت... كل هذا يسمح لهم بالمقاومة. كما ساهم عنصر آخر في اللجوء الى السبيبة، وهو يتجسد في تأسيس الزوايا، ودورها السياسي والاجتماعي الذي لعبته قرونا عديدة، وكذا مساهمتها في تثبيت عقيدة "الاولياء" التي تطرقنا لها سلفا. ويكمن الداعي لثورة قبائل السبيبة، اما في ابعاد الظلم والاستغلال واما في أغراض ذاتية محضة، أو هما معا.

وفي سنة ١٩٠٢، ظهر نوع جديد من قبائل السبيبة، وذلك بظهور الروجي المعروف بـ"بوحمارة" (١٩٠٢ - ١٩٠٩) والريسولي (١٩٠٣ - ١٩٠٦).

— الروجي بوحمارة (١) :

كان الروجي قد اعتقل على اثر تزويره لتوقيع محمد أخ عبد العزيز.. وفر من السجن الى الجزائر، حيث قضى بها عدة سنوات عاد بعدها الى المغرب على رأس بعض المغامرين مزودا بالسلح والذهب من طرف الفرنسيين، فادعى أنه هو ملأى محمد، ودعى للثورة ضد عبد العزيز وحماية البلاد من السيطرة الاجنبية.. واستطاع أن يضم اليه عدة قبائل وأن يحتل عدة مرات مدينتي وجدة وتازة، ووصل مرة الى فاس وحاصرها. وقد فضحت فرنسا في هذه العملية من طرف منافسيها كاسبانيا وألمانيا. دامت ثورة الروجي حتى سنة ١٩٠٩، حيث قضى عليها السلطان عبد الحفيظ.

— الريسولي (٢) :

كان الريسولي أحد كبار قطاع الطرق بشمال المغرب، وقد قضى عدة سنوات بالسجن قبل أن يفر منه. وقد وجد في اسبانيا ما وجده الروجي في فرنسا، فحصل على المال والسلح الكافيين للقيام بثورته ضد السلطان مناديا بنفس الشعارات التي رفعها الروجي. وقد تمكن الريسولي من ضم بعض قبائل الريف اليه وجباله، وزاول نشاطه الهدام طيلة ثلاث سنوات تمكن خلالها هو أيضا من محاصرة مدينة فاس، ولم تتمكن الحملات العسكرية المخزنية من القضاء عليه، فهادنه عبد العزيز وعينه قائدا في الشمال.

هكذا نرى أن المستعمرين قد أطلقوا اسم السبيبة على عدد من الظواهر المختلفة تزويرا للحقائق

حيث يخلطون بين انقلاب رؤساء القبائل على السلطة المركزية والتمردات التي حركوها لخدمة تسليهم الى المغرب وبين المقاومة الشعبية للاستعمار.

تقنين الاحتلال الاستعماري

(أ) وثيقة الجزيرة الخضراء في السيطرة على المغرب :

تسابت الدول الأوروبية في تقديم القروض للمخزن المغربي ، واحتلت فرنسا المرتبة الاولى في دفع القروض . وقد قيدت هذه الدول المغرب بضمانات سياسية لعدم توفره على ضمانات اقتصادية . وعملت الدول الاستعمارية على الاستفادة من هذه الضمانات السياسية ، فوطدت وجودها ونفوذها حتى صارت تتقاسم السلطة مع الحكم ، وتفرض عليه الحلول التي تزيد من تعقيد الوضع واضعاف السلطة المركزية . . . فقام المخزن بنشاط كبير ، وأوفد البعثات الى أوروبا ودعى الى عقد مؤتمر دولي .

وقد انعقد هذا المؤتمر في الجزيرة الخضراء سنة ١٩٠٤ ، وجاءت الدول الأوروبية مشكلة كتلا تجاه القضية المغربية بعد أن عقدت اتفاقيات ثنائية فيما بينها (٣) . يقول محمد خير فارس في كتابه : "المسألة المغربية من ١٩٠٠ - ١٩١٢" :

" بالرغم من أن الدول قد دعيت لبحث أمور تتعلق بمصالح دولية في المغرب ، فإن المؤتمر كان في حقيقته يبحث الخلاف الألماني / الفرنسي . وقد مثلت الدول الاخرى - عدا فرنسا وحلفائها - دور المحلفين في هذه المحكمة الدولية ، أكثر مما مثلت دور القضاة . أما المغرب فقد كان الضحية : لقد تحولت عملية المؤتمر الدولي الذي دعى المغرب الى عقده من محاولة تدويل المصالح الغربية في المغرب الى حصرها في ثلاث دول ، هي فرنسا واسبانيا وألمانيا ، ذلك أن الكواليس والمفاوضات التي رافقت المؤتمر قررت نتيجة مسبقة " .

ويرجع نجاح هذه المؤتمرات أيضا الى :

" ان الوفد المغربي لم يكن في مستوى مهمته ، فقد عجز على فرض مصالح البلاد واستقلالها ووجهة نظره . فقد جاء على لسان رئيسه المقرئ : "اننا هنا بالجزيرة جالسون كتمائيل لا نستطيع أن نقول شيئا ولا نفهم شيئا مما يقال " .

كانت المواضيع التي نوقشت بين الدول المتنازعة على المغرب (فرنسا ، اسبانيا ، ألمانيا) تنحصر في مسألتين البنك والبوليس (الجيش) . وقد حل النزاع حول هاتين النقطتين ، وتم تحديد مستقبل المغرب السياسي .

ان نظرة سريعة على ميثاق الجزيرة الخضراء (٤) ، تبين أنه يشكل تدخلا سافرا في الشؤون الداخلية للمغرب . وقد بالغ هذا التدخل في احتقار الشعور الوطني للمغاربة . وقد جاء في كتاب محمد خير فارس (المسألة المغربية) :

"لقد اعتبرت جميع الدول باستثناء المغرب ، أن المؤتمر قد انتهى الى نتائج مرضية" . وقال ابن سليمان وزير خارجية المخزن : "لقد كان المخزن قبل المؤتمر مريضا جدا ، أما بعده ، فقد انتهى المخزن" .

(ب) فرض الحماية على الشعب المغربي :

ان وجود بوحمارة في الشمال الشرقي والريسولي في الشمال الغربي وعموم الفوضى في باقي المناطق

ب) فرض الحماية على الشعب المغربي :

ان وجود بوحمارة في الشمال الشرقي والريسولي في الشمال الغربي وعموم الفوضى في باقي المناطق وعدم مواجهة أوروبا المتحدة في المؤتمر لمغرب موحد وقوى، كل هذا دفع عبد العزيز الى الرضوخ وتوقيع الميثاق دون اللجوء الى الشعب لمقاومة التدخل الاجنبي وذلك خوفا على عرشه . وعوض أن تقدم وثيقة الجزيرة الخضراء الفرصة لعبد العزيز لفرض سلطته على الخارجيين عن طاعته، زادت من اضمحلال السلطة المركزية ومن تعميم الفوضى التي تزعمها قواد، مثل الكلاوى والمتوكي في الجنوب .

وفي المقابل، أخذ الشعب يقاوم الاحتلال الاجنبي بوسائله الخاصة : حوادث طنجة (١٩٠٢) وحوادث مراكش (١٩٠٦) والدار البيضاء (١٩٠٧) التي أدت الى مقتل بعض الفرنسيين والالمان وأتلغت بعض المؤسسات مما أدى الى انزال قوات فرنسية بالدار البيضاء، فاحتلت الشاوية ودكالة حتى مدينة أزموور على وادي أم الربيع، وكذلك المغرب الشرقي حتى مدينة وجدة . كما احتلت اسبانيا جزءا مهما من الشمال الغربي من البلاد حتى لا تسبقها فرنسا لذلك . ولم يكن لاسبانيا أدنى مبرر . . زيادة على أن الخسائر الناتجة عن الحوادث، لم تكن لتبرر الاحتلال الفرنسي .

لكن فرنسا الاستعمارية كانت تتربص الفرص، واغتنتم أولها لتضع يدها على المغرب، ولم يكن بإمكانها ذلك لو أن عبد العزيز لم يوقع على ميثاق الجزيرة . لكن السلطان قبل مرة أخرى بالشروط التي أملاها عليه الاستعمار في شأن هذا الاحتلال مقابل وعود بالجلال، دافعا مرة أخرى بالبلاد في أحضان الاستعمار، حيث أصبحت فرنسا واحة يدها على المخزن . . ذلك لان همه الوحيد لم يكن مواجهة الاستعمار، بل القضاء على أخيه عبد الحفيظ الذي بايعه القواد بمراكش في ١٦ غشت ١٩٠٧ .

لقد بويح عبد الحفيظ لقيادة الكفاح ضد المستعمر بعد أن أصبح عبد العزيز، في اعتبار الشعب، حليفا للاستعماريين وأداة من أدواتهم . وصل عبد العزيز الى الرباط فارا من فاس التي انقلبت عليه، وسارع الجيش الاستعماري في زحفه من الدار البيضاء الى فاس . وفي ٣ يناير ١٩٠٨، خلع مجلس العلماء وممثلي الاعيان بمسجد مولاي ادريس بفاس السلطان عبد العزيز، وأعلنوا البيعة لعبد الحفيظ . وكانت وثيقة البيعة مقيدة بشروط، الشيء الذي حدث لأول مرة في تاريخ المغرب . فقد ألحّت الوثيقة (٥) على اعتبار الشعب مصدرا للسلطات، لا ينبغي العبث في شؤونه الداخلية والخارجية الا بالرجوع اليه . ورفضت الوثيقة اتفاقية الجزيرة الخضراء، ووضعت برنامجا للخروج بالمغرب من وضعيته الحالية . وأصبح عبد الحفيظ السلطان الوحيد للمغرب بعد أن هزم أخيه عبد العزيز في معركة بالشاوية في غشت ١٩٠٨ . ونجح في القضاء على تمرد الروحي بوحمارة، لكنه لم يستطع ضم كل القبائل اليه، كما أنه لم يفلح في القضاء على القبائل الثائرة . ومن أسباب هذا الفشل :

— سيطرة البعثة العسكرية الفرنسية على الجيش المغربي .

— سياسة عبد الحفيظ المالية المبنية على القروض الخارجية .

— سياسة الكلاوى التعسفية تجاه القبائل، ذلك لان عبد الحفيظ عينه رئيسا للمخزن، وكان هذا قاسيا في معاقبة القبائل، فأدى تصرفه على هذا النحو الى تعميم الثورة على السلطان الجديد ومحاصرة فاس (١٩١٠ - ١٩١١) .

كما أن عدم اعتراف الدول الأوروبية بعبد الحفيظ كسلطان للمغرب جعله في مأزق أدى به هو الآخر الى تقديم تنازلات أخرى لفرنسا، خان بها التزاماته أمام من بايعوه سلطانا . ومن بين هذه التنازلات :

— قبول عبد الحفيظ بمعاهدة الجزيرة الخضراء وكل وسائل التنفيذ التي وضعها وأقرها السلك الدبلوماسي وكذلك الحقوق المخولة لفرنسا وإسبانيا لمراقبة تهريب الأسلحة عن طريق البحر .
— قبول كل معاهدات والتزامات المخزن السابقة إزاء الدول الأجنبية .
— الاعتراف بديون المخزن السابقة والالتزام بأدائها .
— التخلي عن الجهاد وتوجيه رسائل في الموضوع للمدن والقبائل .
— التعهد باتخاذ كل التدابير اللازمة لتأمين سلامة وحرية المواصلات حول كل الموانئ ، وكذا على الطرق الرئيسية نحو الداخل .

ان هذه الالتزامات تتعارض كلياً مع تلك التي قدمها السلطان الى الذين حملوه الى العرش ، وبذلك فسخ العقد الذي أمضاه مع الشعب . . وهذه الالتزامات نفسها هي التي ضيعت العرش على عبد الحفيظ وأفقدت المغرب استقلاله ، حيث تطورت شروط الاستعماريين الى أن أدت الى عقد الحماية في مارس ١٩١٢ ، اذ لم يقيم السلطان بمواجهة الوضع ، بل لجأ الى أسهل الحلول كإسلافه عوض اللجوء الى الشعب ، وخان ما التزم به أمام المواطنين ووافق على استعمار البلاد . هذا وقد تنازل عبد الحفيظ على العرش لاختيه سلطان الاستعمار يوسف في غشت ١٩١٢ ، وغادر المغرب الى أوروبا . جاء في " المسألة المغربية " :
" لقد حطّم عبد الحفيظ الشارات السلطانية قبل مغادرته الرباط ، لانه عد نفسه آخر سلطان مستقل " .

ج) الثورات ضد الاحتلال (ثورة الريف) :

بعقد معاهدة الحماية ، أصبح الاستعمار الفرنسي صاحب وضعية قانونية بالبلاد . وقامت القبائل ، برئاسة زعمائها وبعض الاقطاعيين ، وروساء الطوائف الدينية ، لمقاومة الاحتلال الاجنبي . ومن هذه الثورات من دامت عشرات السنين ، كثورة الهيبية ماء العينين في الجنوب ، والسملالي في تافيلالت والمغرب الشرقي ، وموحى وحمو في الاطلس المتوسط ، واكتسبت بعضها عتفاً دولياً وتأييداً مطلقاً كثورة الامير محمد بن عبد الكريم الخطابي بالريف .
وتستحق ثورة الريف أن نقف عندها لما كان لها من تأثير على الوضع بالمغرب والخارج ، ولما ابتدعته وابتكرته من وسائل في تنظيم حرب التحرير الشعبية لمواجهة الاستعمار .

لما تم عقد الحماية ، كان على رأس أكبر قبيلة ريفية تسمى " ببني ورياغل " رئيس متبصر ومقتنع بتقاليد قبيلته في التحرر والاستقلال ، هو عبد الكريم الخطابي . وقد بعث بابنه الى الجامعات للدرس والتثقيف ، فأرسل ابنه الأكبر محمد الى القرويين لدراسة علوم الشريعة وأرسل ابنه الأصغر لدراسة علم الجيولوجيا واستغلال المعادن . وقد رفض هذا القائد حكم الاجانب على البلاد ، ورفض الخضوع للحماية ، فأصبح بذلك خارجاً عن طاعة السلطان وحماية الاسبانيين والفرنسيين . تحمل الاسبان اخضاع عبد الكريم الخطابي وقبيلته وحملهم على تقديم الولاء للسلطان ، أي الاعتراف بحكم الاستعمار ، فزحفت جيوش الاسبان في يوليوز ١٩٢١ على قبائل الريف ، واحتلوا الطريق المؤدى من امليلية الى الحسيمة وهي أهم الطرق الرئيسية بالمنطقة ، فسارع الشيخ الى تنظيم الدفاع ضد الاحتلال ، وتوفى أثناء مسيرة الزحف الاول ضد الاستعمار ، فتولى ابنه محمد قيادة الجيش والقبيلة ، واتصف باخلاق أبيه السامية ، كما اتصف بكفاءات القائد السياسي والعسكري ، فاستطاع أن يقود رجال ثورة الريف الابطال الى انتصارات كبيرة هزت أركان الدولة الاستعمارية الاسبانية رغم قلة الوسائل والموارد وخاصة السلاح .

استطاع جيش محمد بن عبد الكريم أن يحطم تحطيمًا كليًا جيش الأسبان الغازي لمناطق الريف، وصار الثوار يقومون بعمليات تحريرية خارج مناطقهم، وأصبحوا يهددون الوجود الإسباني في مناطق جبالة وفي منطقة كرسيف وشمال الأطلس المتوسط.. كما كانت انتصارات الريفيين سببا في أزمة عنيفة بإسبانيا، جعلت هذه الأخيرة ترضخ لمطالب الريسولي الذي كان يحاربها على رأس قبائل جبالة، وكان يحقق انتصارات لا تقل أهمية عن انتصارات رجال محمد بن عبد الكريم، وقبلت إسبانيا بالشروط القاسية التي فرضها الريسولي، فأدت جزية جد مرتفعة على الجنود المعتقلين، كما أدت تعويضا كبيرا على الأضرار التي خلفتها الحرب، واعترفت إسبانيا بسلطة الريسولي في مناطقه. أدت إسبانيا ثمنا غاليا للهدنة معه، وقبلت بالاهانة أمام الرأي العام الأوروبي في سبيل توحيد قواها لمواجهة ثورة محمد بن عبد الكريم، ذلك أن إسبانيا أدركت الخطر الحقيقي الذي تشكله هذه الثورة التي تختلف عن ثورة الريسولي.. فالريسولي انتهازي تبني الشعارات الوطنية للحصول على زعامة القبائل، وهو يقاوم الاستعمار للتخلص من سلطته والتمكن من فرض استغلاله على قبائل جبالة. أما ثورة الريف فهي تختلف اختلافا كليًا عنها، فقائدها يمتاز بصفات رجل الدولة وقائد جيش ذي خبرة عسكرية واسعة، واختياره واضح غير متذبذب، فهو لا يقبل انصاف الحلول، ولا يبحث عن المصلحة الشخصية، يريد طرد المستعمر وتحرير قبائله. ورغم انتمائه لوسط اقطاعي، فقد كان يهدف إلى تغيير المجتمع وتطويره مستعملا الطرق العصرية في التنظيم والتسيير، فوزع السلطات على أناس مقتدرين... واعتمدت ثورته على تضحيات الرجال وابتكاراتهم، بل حتى النساء والأطفال شاركوا في هذه الثورة التي قامت بإرادة الشعب ودامت بتضحياته. فتجاوب الشعب مع قاداته، وأتوا بتجربة جديدة أدهشت العالم، نظرا للتنظيم المحكم، وتعبئة الإمكانيات المحدودة وتسخيرها بطرق ذكية وتقييمها تقييما عقلانيا يمكن من سد العجز. كما استعملت غنائم المعركة لصالح الثورة وأصبحت تكون أكبر مصدر للعتاد. وحتى المال الضروري لتسيير الثورة، كان يدفعه الأسبان مقابل تحرير جنودهم الأسرى، فجهز ومول الثوار، ونظم الجيش على طريقة جعلت الانتاج الفلاحي والصناعي لا يتوقف، إذ اقتصر على ١٠.٠٠٠ جندي دائمين و٦٠ ألف من المتطوعين ينضمون إلى الجيش في وقت العمليات، فأعطوا مثالا رائعا للشعوب في التنظيم الثوري وحطمو جيوش إسبانيا المتزايدة العدد (من ٢٤ ألفا إلى ٣٢ ألفا إلى ١٥٠ ألفا).

وقد قويت حركة محمد بن عبد الكريم مما أدى إلى انضمام كل قبائل الريف وجباله، واعتقل الريسولي الذي أخذ يقاومه سنة ١٩٢٥، ومات في نفس السنة في مدينة "أجدير" عاصمة الجمهورية الريفية.

أخفقت إسبانيا في محاربة الثوار، وشرعت في مفاوضات رسمية مع محمد بن عبد الكريم حول تخليها عن حماية الشمال، مقابل الاحتفاظ ببعض الموانئ المغربية فيه. ولما قوى مركز الجمهورية الريفية، ووصلت أنباء انتصاراتها إلى أبعد أطراف العالم، فإنها أصبحت تشكل خطرا على النظام الاستعماري وخصوصا في البلدان العربية، فخشيت فرنسا أن تعم الثورة شعب شمال إفريقيا، إذ أن عددا من القبائل الجزائرية أخذت تتعامل مع محمد بن عبد الكريم، وبدأ ثوار الريف يحثون قبائل الأطلس المتوسط على الانقلاب على المستعمر والسultan لتحرير البلاد. وهكذا هجمت الجيوش الاستعمارية الفرنسية بقوة عظيمة تفوق ٥٠ ألفا وبقيادة أشهر قادتها العسكريين كالجنرال بيتان. واستولت هذه الجيوش على بعض المواقع بعد حرب دامت عدة شهور من سنة ١٩٢٥، ولكنها لم تستطع التقدم في جبال الريف معقل الثوار. وقد كلفت هذه العملية الكثير من الخسائر من الرجال والمال لفرنسا، الشيء الذي هز الرأي العام الفرنسي وزاد من سمعة الثورة الريفية. ولم يدخر الحزب الشيوعي الفرنسي جهدا في خدمة جمهورية الريف، فأيد الثورة وساندها بالدعاية لها في فرنسا وأوروبا، وأصدر بيانا عن لجنته المركزية يطالب فيه بالاعتراف بحكومة محمد بن عبد الكريم، كما شرع في تكوين جبهة عالمية للقتال بجانب الثوار. وتحركت القوات الديمقراطية في مختلف

المؤسسات الوطنية والاقليمية، وخرجت النساء الفرنسيات في مظاهرات ضخمة، رددن فيها شعارات معادية لسياسة الحكومة، ومويدة لثوار الريف، مثل : "أخذتم رجالنا في الحرب العالمية، وتريدون أخذ أبنائنا في حرب استعمارية"، وطالبن بالسلم والاعتراف بالاستقلال للرجال الاحرار. الا أن الاستعمار الفرنسي لم يخضع لضغط الرأي العام بفرنسا وأوروبا، ولم يكن يبالي بضياغ الرجال والعتاد في حرب مفتوحة، بل الذى كان يهيمه هو تصفية الثورة، ليخلو له الجو في شمال افريقيا. وهكذا عملت فرنسا على توحيد القوى الاستعمارية في محاربة الريف الثائر، فحاصرت سفن حربية انجليزية وفرنسية واسبانية شواطئ الشمال لمنع وصول السلاح والذخيرة الى الريف، وحصلت فرنسا على موافقة اسبانيا لتوحيد مجهوداتها لمحاربة الثورة، فجهّزا جيشا قويا بالعتاد والعدد، وطوقا الثوار. وكانت عملية تصفية الثورة سهلة، اذ أن طاقاتها أنهكت بعد التضحيات الكبيرة التي قدمتها للقضاء على جيوش الاسبان. وبعد سنة من الحرب ضد الجيوش الفرنسية؛ فالانتاج ضوئ لانشغال الريفيين بالحرب، والمناطق الاخرى كالاتلس المتوسط لم تنضم اليها لتزويدها بدم جديد. . أضاف الى ذلك أن الاستعمار قد نزل بكل ثقله الى الميدان لضمان القضاء على الثورة (٦). وقد كان تخلي جيوش جباله عن القتال ضربة قاضية لم يبق لمحمد بن عبد الكريم بعدها الا الاستسلام، فأمر المقاتلين بالرجوع الى الحياة العادية، وسلم نفسه يوم ٢٦ يناير ١٩٢٦ منفردا الى الجيوش الفرنسية المرابطة بناحية تازة. واستمرت بعض قبائل الريف في الثورة رافضة النهاية التي اختارها قائدها، لكن سرعان ما تفتت قوتها اذ غرقت في الحرب مع جباله.

المغرب في ظل النظام الاستعماري

لم تكن استراتيجية الاستعمار الفرنسي تهدف الى تحويل الهياكل الاقتصادية والاجتماعية بالمغرب تحويلا تاما، بل كانت ترمي الى تحقيق هدفين أساسيين :

— امتلاك الاراضي والاستيلاء عليها قصد تسليمها للمعمرين .

— البدء بتصنيع المدن لاستخراج المواد الأولية وايجاد سوق لمنتجات الوطن الام .

لقد كانت النتيجة الاولى للحماية، كما جاء في " التركيب الاجتماعي والاقتصادي للمجتمع المغربي " :
" هي أنها جعلت التناقضات الرئيسية بين الاقطاع والبورجوازية المغربية ثانوية بالنسبة لضرورة مقاومة الغزو الاجنبي، وهذه الظاهرة ليست جديدة، اذ كثيرا ما استغلت الاقطاعية هجوما الاسبانيين أو البرتغاليين على شواطئنا لتجنيد الفلاحين وسكان المدن دفاعا عن حوزة الوطن . فلما وقع الصدام المباشر بين الاقطاع والاستعمار الذي أراد انتزاع الاراضي والاستيلاء عليها، أصبحت الاقطاعية المغربية تلعب دورا أساسيا في المقاومة الوطنية . ان انتزاع الاستعمار لاراضي الاقطاع، جعل هذا الاخير يدخل ميدان الكفاح المسلح ليخوض — وهي الطبقة الرجعية — معركة سياسية ذات أبعاد تقدمية، مثل ثورة الريف " .

دامت مقاومة الاستعمار ما يزيد عن ٢٠ سنة، واكتسبت في بعض الاحيان سمعة كبيرة وصل صيتها الى الخارج، ولكن هذه الثورات لم تتمكن من القضاء على الدخلاء، لان وسائلها وتقنياتها كانت تقل بكثير عن وسائل وتقنيات المستعمر . فقد كان المستعمر يملك أسلحة عصرية أكثر قوة وفعالية من أسلحة الثوار العتيقة، كما أنه جهز جيشه بوسائل النقل والمواصلات العصرية وشرع في بناء طرق النقل التي تمكنه من التنقل السريع بين المناطق . ولم تتمكن قوات الثوار من مواجهة العدو بقوة موحدة، اذ كانت كل قبيلة تقاتل بمعزل عن الاخرى، ولم تكن هناك مخططات موحدة على المستوى الوطني . لقد اختار الثوار الطريقة التي عرفت فيما بعد بحرب العصابات، لكنهم ارتكبوا أخطاء فادحة، فقد أخذوا تكتيكا يختلف عن مبدأ " اضرب واهرب " أي

القيام بعمليات سريعة والتنقل بسرعة لاعادة الضربة في مكان آخر، الشيء الذي يضعف معنوية الجيش النظامي ويحد من فعاليته ويشتت قواه في النهاية. لكن الثوار تخلوا عن هذا المبدأ وحاربوا العدو بأسلوب المعارك الكلاسيكية. . وبما أن العدو كان يفوقهم من حيث العدد والتجهيز والتنظيم، فقد كان دائما هو المستفيد من هذه الطريقة في الحرب. كما أن هذه الثورات كانت جميعها تحت قيادة الرجعية والاقطاع اللذين كانا يهدفان الى المحافظة على مصالحهما والدفاع عنها، ولم تأخذ طابع الحرب الشعبية من أجل الإصلاحات الاجتماعية. فباستثناء ثورة الريف، لم تتمكن ثورات قوية مثل ثورة ماء العينين والسملالي وموحي وحمو من القضاء على قوات الاستعمار. . لكنها طورت الوعي السياسي لدى المغاربة وقوت ارادتهم لمقاومة الاجنبي وتحرير البلاد من سيطرته.

سياسة الاستعمار في المغرب :

بعد امضاء عبد الحفيظ على وثيقة الحماية، أكمل الاستعمار سيطرته على جهاز الدولة، وأصبح صاحب السلطة الفعلية بكل جوانبها، ولم يبق من السلطة الدينية والدنيوية للسلطان الا مظهرها. وشرع الاستعمار في تطبيق أول مرحلة من مخططة للاستيلاء على الاجهزة السياسية والاقتصادية، فحول الجيش عن طريق تجنيده (أى من التطوع الى جيش محترف من المرتزقة)، وشكلت هذه الخطوة أهم العناصر التي مكنت الاستعمار من القضاء على الثوار والسيطرة على البلاد. ثم أطر الدولة بجهاز ادارى صار يتحكم في الحياة الاجتماعية والاقتصادية، وأخذ ينتزع الاراضي الخصبة من ملاكيها ليسلمها للاستعماريين الاوربيين، وشرع في تجهيز المواني وانشاء الخطوط الحديدية والطرق ووسائل الاتصال (التلغراف) وتجهيزات أخرى تسهل عملية نقل خيرات البلاد الى فرنسا واسبانيا. وقد دامت هذه المرحلة حتى بداية الثلاثينات. ولم يستخدم الاستعمار المغاربة في عملياته هذه الا في وظائف تنفيذية صغيرة لا تحتاج الى تكوين فني كبير حرصا منه على ابقاء أبناء البلاد في تخلفهم الفكري والاقتصادى. كما أن سيطرته على السوق الداخلية وتعويمها بالمنتجات الاوروبية أدى الى انتكاسة الصناعة المحلية، ولم يسمح بالاضافة الى ذلك للتجار المغاربة بالاستثمار الا في ميادين محدودة، في حين أنه استثمر كل موارد البلاد في المشاريع التي تعود عليه بأكبر الارباح.

لكن الاستعمار كان يحمل في طياته عددا من التناقضات، كما أنه خلف تناقضات أخرى بوجوده وسط شعب ذى شخصية مخالفة له. فقد تلقت الاقطاعية ضربة قوية من البورجوازية الاوروبية التي جاءت لاستعمار المغرب مجهزة بمعدات وآلات وامكانيات أضخم وأقوى من الوسائل التقليدية التي تملكها الاقطاعية المغربية، الا أن الاستعمار بعد أن حطّم مقاومة الاقطاع وسيطر عليه اقتصاديا، فرض عليه سلطته السياسية والاقتصادية دون أن يعمل على افنائه، لان خطته كانت ترمي الى جعله يجد في الاقطاعية حليفا قويا له لمواجهة القوى الوطنية الصاعدة، ووجدت الاقطاعية بدورها في الاستعمار مصدرا لسلطتها السياسية والاقتصادية، فتحالفت معه بعد أن قاومته ولعبت دورا خطيرا ضد التيار الوطني.

ظهور الحركة الوطنية والطبقة العاملة :

بدأ الاستعمار في تنفيذ المرحلة الثانية من خطته الاحتلالية في الثلاثينات بعد أن تمّ له القضاء على الثورات. وتتمثل هذه المرحلة كما أسلفنا في ادخال بعض الصناعات الى المغرب، ذلك أن فرنسا كانت قد استعادت قواها بعد التحطيم الذي تعرضت له في الحرب العالمية الاولى، واسترجع الرأسمال الفرنسي

قوته . كما أن أوروبا بدأت تعمها موجة الفاشية التي أصبحت تهدد النظام الديمقراطي الفرنسي ، وخاصة النظام النازي . وقد عرف المغرب في هذه الظروف أكبر الاستثمارات الفرنسية ، كما أن أكبر المشاريع الاقتصادية والصناعية ، أنشئت أو وضعت أسسها في تلك الفترة . وقد أنضج هذا التصنيع شروطا موضوعية لنمو الوعي الوطني في المدن ولانتقال المقاومة من العمل المسلح الى العمل السياسي ومن البوادي الى المدن . فالتصنيع مَسَّ مباشرة مصالح الصناع التقليديين والتجار الذين تضائلت أرباحهم ، وعجزوا عن منافسة الصناعة الحديثة .

لقد ساعد الاستعمار المغاربة - دون وعي منه - على اكتشاف العالم الذي كان يفوقنا في الصناعة والعلوم وكل مظاهر الحياة ، وأدى تطبيق الاستعمار للنمط الرأسمالي في استغلال البلاد الى خلق وعي وادراك بالحقوق والواجبات . . . كل هذا ساهم في بلورة وعي اجتماعي أدى الى ظهور حركة اصلاحية ، كانت أولها الحركة السلفية التي انبثقت من سلا وفاس وتطوان ومراكش وعملت على ابراز حقيقة الاسلام وقامت بحملة تدعو فيها المواطنين الى نبذ الخرافات والتخلص من سلطة رجال الطرق والمشعوذين التي كان يحركها الاستعمار ويترأسها بعض " الاشراف " الطامعين في العرش . وهذه الحركة هي التي نسفت الطريق أمام المؤامرة الاستعمارية سنة ١٩٣٠ المعروفة بالظهير البربري والتي كانت تهدف الى تقسيم المغرب الى منطقة عرب مسلمين ومنطقة بربر كان يطمح الاستعمار في تنصيرهم ، فتسبب الظهير البربري في توجه الحركة السلفية الى الميدان السياسي . وأدت كل هذه التطورات الى توسيع نفوذ الطبقة البورجوازية وتقويتها ومكنتها من احتلال مكان الاقطاع ولقيادة نضال الشعب المغربي ضد الاستعمار .

لقد أدى هذا التطور الى ميلاد الطبقة العاملة ودخولها مع صغار التجار والصناع ميدان المعركة السياسية ، فأعطوها بعدا وطنيا طبع الاحداث ووجهها الى استقلال البلاد . فالتبقة العاملة اكتسبت وعيا اقتصاديا وسياسيا ونقابيا نتيجة احتكاكها مع العمال الاوروبيين ودخلت ميدان الكفاح السياسي والنقابي ، اذ نظمت سنة ١٩٣٦ ، أول اضراب للعمال في القطاع العصري .

أمام هذه القوى المتنامية والمتلاحمة - قوة العمال والبورجوازية - كان لا بد للاستعمار أن يجد حليفا له في المجتمع المغربي لمواجهة التيار الوطني ، ووجد هذا الحليف في الاقطاعية المغربية كما رأينا سابقا ، لان الاقطاعية المتطفلة ، كانت تحرص على استمراريتها مهما كانت الظروف . . وهكذا تعاملت مع الاستعمار مقابل امتيازات اقتصادية وسياسية قدمت لها وتصدت لضرب الحركة الوطنية . كما جند الاستعمار حلفائه الرجعيين للوقوف في وجه التطور الاجتماعي . ومما يذكر في هذا المجال ، المواقف الهزيلة التي اتخذها المقيم العام - الذي نصب نفسه هو وأصدقائه في الإقامة العامة - للدفاع عن الاسلام ، وقاوموا تحت هذا الغطاء كل اصلاح في التعليم والتجارة والفلاحة بصفته خروج عن التعاليم الدينية .

أما السلطان والمخزن فلم يترك لهما الاستعمار الا وجودا صوريا ينحصر في الموافقة على قرارات الإقامة العامة ، اذ أن السلطان أصبح منذ عهد يوسف أداة طيعة في يد الاستعمار وكانت سمعته وسلطته المعنوية قد تلقت ضربة قاتلة عداة توقيع عقد الحماية .

تأثيرات الوضع الدولي :

نصّب الاستعمار نفسه ليقوم بدور الوسيط بين المغرب وباقي العالم ، وكان يعمل على قلب الحقائق في الاتجاهين . ففي الخارج يشوّه سمعة المغرب ، ويبذل كل الجهود لاقناع الرأي العام الدولي بأن المغاربة همجيّون يشكلون خطرا على الحضارة الغربية ، ولا يستحقون أيّ عطف انساني . وفي الداخل ، كان يفرض رقابة

صارمة على الاخبار، وكان يمنع وصول كل الاخبار عن الحركات التحررية في العالم العربي وفي آسيا . وهكذا مرت أحداث هامة في تاريخ شعوب العالم، دون أن يوجد لها صدى يذكر في المغرب، ولم يطلع عليها المغاربة الا بعد مرورها بعشرات السنين، مثل ثورة اكتوبر العظيمة، وثورة العمال والفلاحين في الصين والهند الصينية، ثم ثورات الهند وأندونيسيا وكوبا . الخ . وقد بقي المغرب عدة سنوات في معزل عن التيارات الوطنية في العالم وعن تطور حركة البروليتاريا في الدول الصناعية، ولم يستفد المغرب من ظروف الحرب العالمية الاولى، كما أنه لم يستفد من الحرب الاهلية الاسبانية، بالرغم من أن الجنود المغاربة شكلوا القوة الفعالة التي مكنت نظام فرانكو الناشي من تشتيت قوة الجمهوريين .

جاءت الحرب العالمية الثانية لتغير الاوضاع بالمغرب، فطرق المواصلات قد تطورت، وتعرف السكان الحضريون بالمغرب على جهاز المذيع مما ساعد نسبيا على خروج المغرب من العزلة . وقد عرفت السلطات الفرنسية في المغرب تمزقا وحيرة بين حكومة بيتان المتعاون مع الفاشية وحكومة الاحرار بقيادة دوكل، كما أن المغاربة شاركوا في هذه الحرب مشاركة واسعة لم تقتصر على الجنود المرتزقة، بل شملت أغلب مناطق المغرب ان الاحداث التي دارت في أوروبا وعلى أبواب المغرب، جعلت الشعب المغربي يتعرف بصفة واسعة على العالم الغربي ويدرك حقوقه المصوبة . كما أن الضعف الذي اعترى فرنسا اقتصاديا وسياسيا بحكم تشتت قواها واحتلالها من طرف الالمان، اضطرها الى القبول ببعض الإصلاحات، منها تنظيم أحزاب سياسية معترف بها، واصدار صحافة وطنية، والتنازل عن بعض الحقوق النقابية للعمال وتأسيس مدارس ابتدائية وثانوية وطنية . فرضت الحرب على الاقتصاد الرأسمالي أن يحول انتاجه في المستعمرات الى انتاج خاص لتزويد جيش الاستعمار بالتجهيزات وسد حاجيات الشعب الفرنسي بالمواد الضرورية . وقد أدى هذا الى انتعاش الصناعة الداخلية والفلاحة . لكن هذا الانتعاش لم يدم طويلا، فسرعان ما تخلص الرأسمال الاستعماري من مضاعفات ومخلفات الحرب، فأدى ذلك الى انتكاس النشاط الداخلي، هذا بالإضافة الى تكاثر البطالة وتفاقمها من جراء تسريح المجندين في الجيش الفرنسي، الى جانب تقلص نشاط القطاع العصري في الصناعة منذ بداية الحرب والقطاع التقليدي لم يطور نفسه وحافظ على نمط انتاجه العتيق، فلم يكن ذلك السوق الكافي لاستيعاب عشرات الالاف من العاطلين عن العمل . وهكذا لجأ العاطلون البدويون الى الهجرة للمدن وأنشأوا مدن القصدير بضواحي المدن الكبيرة، وعم سوء التغذية وانعدمت الشروط الضرورية للصحة، فعمّ المغرب موجة من من الامراض المعدية كالتييفويد والسل والتراخوم والجربة والقراع . الخ وطبعت أجيال ذلك العصر بنقص التغذية وأدت كل هذه الاحداث الى تحويلات في العقلية المغربية وفي المجتمع .

فالإصلاحات " التي حصل عليها المغاربة كما رأينا، لم تكن ناتجة فقط عن ضعف الاستعمار، بل أتت نتيجة لتطور الطبقة البورجوازية، والضغط الشعبي الناتج عن التحويلات التي غيرت في تركيب المجتمع المغربي وخاصة طبقة العمال والصناع والشغالين وجماهير العاطلين بالمدن الذين توسعت رقعتهم وتضخم عددهم وجاءوا من كل أنحاء البلاد حاملين معهم ثراتهم الثوري التقليدي . وفي أثناء الحرب، أقبل المجتمع المغربي على تطوير نفسه فتحدى العقلية البورجوازية ومناورات الاستعمار وشرع في تطوير مظاهر حياته وطريقتها . . ففي عهد الحماية انفتح الشعب على وسائل الحياة الاوروبية فبدأت منتوجات الصناعات الاوروبية تكتسح البيوت وقلد المغاربة الاوروبيين في هندامهم وبعثوا بعشرات الالاف من أبنائهم لمتابعة دراستهم بالمدارس الاستعمارية والمدارس الحرة الوطنية . كانت الظروف مناسبة للبورجوازية المغربية لان تفرض وجودها وتتقاسم السلطة مع الحكم الاستعماري . ففي الداخل، حصلت تغييرات لصالح الحركة الوطنية أقلقت سلطة الاستعمار الذي كان غارقا في الحروب الاوروبية، فلم يكن في استطاعته مواجهة ثورة ما بالمغرب وعلى المستوى الدولي، فان الهجوم النازي على أوروبا قد قوى من شعور الحرية والاستقلال عند الشعوب

لهذه الحوادث فتخلت عن السير فيها، بل أكثر من هذا عملت بكل ما في وسعها لايقافها فصارت تدعو الى هدوء الاعصاب وعدم الانسياق وراء استفزازات الاستعمار وعدم القيام بأعمال العنف . لم تستطع البورجوازية ايقاف الثورة، لكنها منعتها من التطور بالتخلي عنها والوقوف في وجهها، واستطاعت بحكم نفوذها الجديد والقوى أن تحد تدريجيا من ثورة الشعب . أما الرجعية فلم تتجاوز مشاركتها لهذه الانتفاضات الشعبية بالمدن تلاوة اللطيف والصلاة على أرواح الشهداء . . واستعمل الاستعمار لأول مرة حليفه الجديد أى الاقطاعية التي لبث نداء الاستعمار وعسكرت على ضواحي المدن وقمعت الشعب في بعضها مثل مراكش وفاس والدار البيضاء . وصارت الاقطاعية من هذا الوقت تكوّن قوة اجتماعية مغربية استعملها الاستعمار في عدة مناسبات لتحقيق أغراضه واعطاء لعملياته صبغة العمليات الداخلية بين المغاربة أنفسهم، مثل ابعاد محمد بن يوسف عن العرش سنة ١٩٥٣ . التجأ الشعب الى السلطان في المشور في قصر الرباط يدعوه الى التدخل لدى الإقامة العامة لاطلاق سراح الزعماء الوطنيين وتأييد طلبهم بالاستقلال وكان موقف السلطان الى جانب الوطنيين بدون أى التباس قد أعطاه شعبية كبيرة وأعاد للسلطان احترام الشعب وتأييده باستثناء الاقطاعية التي ابتعد أغلب قادتها نهائيا عن السلطان . . وهكذا فبفضل بعض قادة الحركة الوطنية، خاصة بفضل مولاي العربي العلوي انضم السلطان الى الشعب وخسر الاستعمار خطته التي جعلت من السلطان عدة سنين أداة طيعة مسالمة غير واعية بين يده . أما الشباب فقد أظهر في هذه المظاهرات دوره الطلائعي مرة أخرى في مواجهة الاحداث واتخاذ المسؤولة على المستوى الوطني واخضاع تطور الاحداث في الاتجاه الذى يريده ويتصوره، وكونت الشبيبة المغربية العنصر الديناميكي المحرك في ثورة المدن . وكانت هذه الشبيبة تتكون من عمال وصناع وصغار التجار والطلبة والعاطلين، أى من كل الطبقات المغربية (من سكان الاكواخ الى سكان القصور البورجوازية) ودامت هذه القاعدة الشعبية للحركة الوطنية حتى بعد الاستقلال .

استطاع الاستعمار القضاء على هذه الثورات بفضل تحالفه مع الاقطاعية ونتيجة تخاذل البورجوازية التي لم تكن في مقدورها المضي في ثورة عنيفة قد تطيح بها هي نفسها، ونتيجة الفقر الايديولوجي في صفوف الجماهير وانعدام أطر منظمة ومكونة تكوينا نظريا علميا يمكنها من تحليل الوضع حسب قوة الطبقات والوجود الاستعماري لتخرج بمخطط للاطاحة بهذا الاخير وفرض نظام يرتكز على العدالة الاجتماعية، كما أن الوضع العالمي للاستعمار قد تغير منذ يناير ١٩٤٥ .

المؤامرة الامبريالية على العالم غداة الحرب الثانية :

كانت قوة الحلفاء قد أخذت في تحطيم قوة الفاشية بسرعة البرق الى أن احتلت جيوش الاتحاد السوفياتي برلين في ٨ ماي ١٩٤٥ وقضى على المقاومة اليابانية في المحيط الهادى . في نهاية هذه الحرب وضعت أسس صراع جديد على المستوى الدولي . ولقد أدت الحرب الى توزيع أوروبا، فقد احتلت جيوش الانجليز والامريكان أوروبا الغربية وثلثي ألمانيا واحتلت جيوش الاتحاد السوفياتي أوروبا الشرقية والثلث الباقي من ألمانيا بما في ذلك العاصمة برلين . وفي مؤتمر "بوتسدام" وضعت اتفاقية ايقاف الحرب ونصت على تغيير الحدود بين الدول الأوروبية، أى بمعنى آخر حددت توزيع أوروبا بين نفوذ النظام الاشتراكي والنظام الرأسمالي . وكان هذا التوزيع يخضع لمخطط امبريالي واستعماري عالمي . فالدول الاستعمارية بعد أن تخلصت من الحرب صارت تهدف الى اعادة سيطرتها على العالم الثالث من جديد، لكن الوضع في العالم كان قد تغير، لان الحرب علمت الشعوب شعارات الحرية وحقوق الانسان التي كان الاوروبيون أنفسهم يطرحونها للتخلص من سيطرة النازية وعمت الثورات شعوب آسيا وبعض الاقطار الافريقية . كما أن وضع أمريكا

في العالم، في تلك الاونة، جعلها تتصرف لغير صالح الاستعمار الاوروبي . لقد كون روزفلت لجنة ضمت روكفلر وترومان وعناصر أخرى من ممثلي الرأسمال الأمريكي الكبير وكلفت هذه اللجنة بوضع السياسة الخارجية الأمريكية ويمكن تلخيصها في الاتي :

- ١- اعادة تركيب المجتمع الرأسمالي الاوروبي .
- ٢- قطع الطريق على توسع الاشتراكية في العالم .
- ٣- السيطرة الاقتصادية على افريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية .

عرفت أوروبا تقدم القوى التقدمية بقيادة البروليتاريا والاحزاب الشيوعية منذ الحرب العالمية الاولى الى الحرب العالمية الثانية، ومكنت هذه القوى من الوصول الى الحكم في الدول السكندنافية وفي فرنسا وإيطاليا، وبعد الحرب العالمية الثانية، عادت هذه القوى لتكسب نفوذا جديدا، اذ أن تركيب النظام الاقتصادي البورجوازي كان قد لحقه ضرر كبير من جراء الحرب . . كما أن هذا النظام هو الذي تسبب في اشغال الحرب وتعرض لخطر جماهير الدول الأوروبية، فكانت أول حكومات أغلب الدول الغربية تتكون من أحزاب اشتراكية وشيوعية، وكان الخطر على النظام الرأسمالي كبيرا، اذ أن القوات الشعبية كانت تعتمد المثال السوفياتي وتطمح في تحقيق نظام الديمقراطية الشعبية التي تحطم الاقتصاد الرأسمالي، وبالتالي تبعد خطر الحرب الناتج عن هذا النوع من الاقتصاد، وهذا هو ما يفسر مشروع مارشال . عرف هذا المشروع لدى الجميع بأنه اعانة أمريكية تقدم الى الدول الأوروبية لتتمكن هذه الدول من اعادة بناء ما حطمته الحرب ولتخرج من الوضعية الاقتصادية والتجارية التي تركتها الحرب فيها . وعرفت أوروبا فعلا انطلاقة كبرى في الاقتصاد، وخاصة في الصناعة وكان هذا هو المقصود بالذات، فزيادة على كون الرأسمال الأمريكي أصبح موظفا في الصناعة الأوروبية ويستفيد من أرباحها، فانه مكن النظام الرأسمالي من استرجاع قوته والسيطرة على الدول الأوروبية من جديد . وهكذا قاد الأمريكيون مشروعهم المسمى مشروع مارشال الى توقيف تقدم القوات الشعبية لجماهير الشعوب الأوروبية وخلق حلفاء أقوياء بأوروبا لمواجهة الاتحاد السوفياتي ودول أوروبا الشرقية التي أصبحت هي الاخرى تبني الديمقراطية الشعبية (بلغاريا، هنغاريا، رومانيا، تشيكوسلوفاكيا بولونيا، ألمانيا الديمقراطية، يوغسلافيا) . وخارج أوروبا هدفت الولايات المتحدة الأمريكية الى تغيير النظام الاستعماري القديم الذي أصبح يثير ثورات الشعوب ويهدد بتحطيم النفوذ الاوروبي في آسيا وافريقيا، بتحقيق تحرر بعض الشعوب والتخلص من السيطرة الأجنبية وسيطرة الاقطاعية والبورجوازية المتعاملة مع المصالح الأجنبية، أى باختصار نظام الديمقراطية الشعبية، مثل التيارات الثورية التي كانت تعم شرق آسيا . كانت أمريكا تعمل على تغيير النظام الاستعماري بنظام امبريالي عرف باسم الاستعمار الجديد، فبعد أن يعطى الاستقلال السياسي للشعوب أى بعد أن يعيد تسيير شؤون البلاد الى أهلها يعمل المستعمر وحليفه الجديد الامبريالية الأمريكية على وضع مؤسسات وأنظمة خاضعة نهائيا الى الرأسمال الغربي ونفوذه السياسي والاقتصادي . هذا هو نوع الاستقلال الذي كان روزفلت قد وعد به محمد بن يوسف، الذي كان يعمل له الأمريكيون ولو أدى بهم ذلك الى الاصطدام مع الاستعمار الاوروبي القديم الذي لم يكن يدرك أبعاد هذا التكتيك الجديد في سياسة الرأسمال العالمي . وقد ساعد الأمريكيون بكل الوسائل الحركات الوطنية للتعجيل بانسحاب الاستعمار القديم من المناطق التي أصبحت تهدد بابتعادها نهائيا عن دول المنظومة الرأسمالية، وأدى عزم أمريكا على تحقيق هذا الهدف الى مساعدة ثورات كان يحركها الشيوعيون مثل ثورة الفيتنام الذي كان الأمريكيون يزودونها بالسلاح . وقد نجحت الامبريالية الأمريكية في ابعاد الاستعمار القديم وتعويضه وربط الدول الجديدة بالتبعية الكلية لمصالحها وسياستها . وهذا النجاح مشخص في دول حلف بغداد وحلف دفاع جنوب آسيا . . ولم تنج من هذه السيطرة الا المناطق التي كانت تتوفر على تنظيم عمالي قوى وأحزاب

شيوعية ذات القاعدة الشعبية الواسعة مثل الصين وكوريا والفيتنام . وحتى هذه المناطق لم تتخلص من سيطرة الاجنبي على جزء من بلادها الا بخوض حرب عنيفة مع الرجعية الوطنية أو مع جيوش الولايات المتحدة نفسها كانت الحرية التي تريدها الولايات المتحدة (لشعوب القارات الثلاث) لتحريرها من الاستعمار، هي ابعاد سيطرة الاستعمار القديم وتعويضه بأنظمة محلية على شكل الديمقراطية الغربية بما في ذلك النظام البرلماني وتعدد الاحزاب والليبرالية في الاقتصاد وذلك حتى تتمكن الولايات المتحدة وحليفاتها من أن تتحكم في اقتصاد هذه البلدان وفي مصيرها . . وكل هذا مقنع بشعارات خلافة كشعارات الديمقراطية ووجوب التمتع بحقوق الانسان . . الخ . رغم أن هذه الحرية التي أرادت الولايات المتحدة لم تكن الا استعمارا جديدا مقنعا فان الدول الاستعمارية الأوروبية لم تقبل هذا التغيير ولم تدرك آفاقه الحقيقية، فقاومه لتحافظ على وضعها في مستعمراتها . . الا أن الشعوب قد أصبحت تقاوم بعنف هذا الاستعمار الذي يعتمد على الاستغلال السافر . هذه باختصار الظروف الخارجية التي وجد المغرب نفسه فيها عندما حاول لأول مرة أن يتخلص من الاستعمار . لقد رأينا أن الاطر البورجوازية هي التي قادت هذه الحركة وأصبحت منذ ذلك العهد تسيطر على الحركة الوطنية وتقودها . وهنا تكمن الاسباب الحقيقية لتزييف ثورة ١٩٥٢ والتطفل ثم السيطرة على نتائجها سنة ١٩٥٦ . كانت هذه البورجوازية ضعيفة لقلّة أطرها وحدائث عهدا بالسياسة والتنظيم . . وضعيفة كذلك لانها تمثل البورجوازية المغربية التي بقيت تعيش على هامش الحياة الاقتصادية منذ الاحتلال الاجنبي وحتى الحرب العالمية الثانية، فكانت بذلك تكون طائفة ذات نفوذ ضعيف في الاقتصاد والسلطة، أما حزبها - حزب الاستقلال - فقد كان حزباً جماهيرياً قويا عرقل نشاط الاستعمار وحطم كل مناوراته وعياً الجماهير التي كان لها الدور الحاسم في النهاية . ومن تضحياتها ومبادراتها حصل المغرب على استقلاله، لكن البورجوازية استطاعت أن تبلور قوة الجماهير لصالحها واستطاعت أن تعوض الاستعمار وتسيطر على مراكز القيادة في الثورة وتستغلها لحسابها خصوصا وأن الجماهير قد وضعت مستقبلها ومصالحها بين أيدي هذه البورجوازية وتبنّت نظرياتهم وتحليلاتهم وآمنت بهم ايمانا قويا، فبقيت تحت سلطتهم ونفوذهم . وكان هذا ممكنا لكون المعركة كانت ضد الاجنبي فتطلبت وحدة الصفوف وأصبح من الممكن ايقاع ذلك الخلط والمغالطة بين مصالح الشعب الكادح وبين مصالح البورجوازية المقنعة وراء المطالب الوطنية؛ وكان ذلك أيضا ممكنا لان الميدان السياسي في المغرب كان فارغا، ولما وجدت تنظيمات سياسية لملئه كانت هذه التنظيمات كلها بورجوازية وقطعت الطريق على كل تنظيم شعبي حقيقي، اذ امتصت القوى الطلائعية للجماهير الشعبية في تنظيماتها وحطمت أو حاولت أن تحطم كل ما كان يتعارض مع مصالح البورجوازية . هكذا وكانت الجماهير الشعبية تسير في لعبة البورجوازية وتخدم مصالحها . . ولا يمكن أن يكون ذلك الا على حساب هذه الجماهير نفسها . ولما ظهر الحزب الشيوعي في المغرب سنة ١٩٤٦، كان يحمل في تنظيمه وفي سياسته عناصر فشله، اذ أنه كان نابعا من الحزب الشيوعي الفرنسي، فكان ذلك يتعارض مع الشعور الوطني لجماهير الشعب المغربي الذي صار بعد الاحتلال يخشى كل ما هو مرتبط بالتنظيمات الاجنبية ويرفض التعامل معها . كما أن الحزب الشيوعي الفرنسي وفرعه بالمغرب أي الحزب الشيوعي المغربي كان يهدف الى تطوير البلاد المستعمرة من التخلف بتقوية الصناعة العصرية من أجل خلق طبقة البروليتاريا في اطار الحماية الفرنسية التي ستحمي الشعب المغربي من سيطرة الامبريالية الامريكية . . وهذا الموقف خاضع لنظرة الاحزاب الشيوعية بعد الحرب العالمية الثانية، اذ أنها كانت واعية لمخططات الامبريالية الامريكية التي كانت تهدف كما رأينا الى تعويض الاستعمار القديم بالاستعمار الجديد الذي ما هو الا جانب من التنظيم الامبريالي في العالم، ولكن الحل الذي اختاره الحزب الشيوعي لمستعمرات فرنسا لتخطيم المواجهة الامبريالية، كان يخدم مصالح الاستعمار وانبعثت رأسمال الفرنسي ويتعارض مع شعور ومطامح الشعوب التي حصلت على تجربة كافية لتفهم معنى التطور والتقدم تحت حكم الاستعمار الفرنسي . . وكان موقف الحزب الشيوعي هذا يعتمد على التحليل الراجح للحركة الشيوعية

العالمية بعد وفاة لينين والتي عارضت الشيوعية الوطنية التي تزعمها جيورجي ديمتروف وهوشيمنه . . كما أن الحركة الشيوعية تعرضت الى حملة عنيفة من طرف الرجعية والرأسماليين الغربيين ، فأخذ الشعب المغربي كأغلب الشعوب التي عرفت الاستعمار، يتعرف على الحركة الشيوعية تعرفا منحرفا وتركبت لديه أحقاد ضد هذه الحركة الثورية خصوصا وأن الدعاية الرأسمالية ركزت مجهوداتها على الشعوب المستعمرة ومنعتها من القيام بدورها الطلائعي في معركة التحرير والتخلص من الاقطاعية وكل المتطفلين على حقوق الشعب مثلما حدث في الهند الصينية وغيرها من البلاد الاسيوية، فقطع على الحزب الشيوعي المغربي طريق البادية وحتى في المدن تعرضت له البورجوازية والرجعية مشجعة في ذلك من طرف الاستعمار فاقصرت قاعدة هذا الحزب على طبقة "الانتيليجيسيا" وبقي يعيش على هامش المعركة السياسية والاجتماعية بالبلاد واضطر الى التخلي عن واجبه السياسي وعن دوره الطلائعي في تحرير الجماهير .

كما تأسس حزب آخر على النمط الاوربي سمي نفسه حزب الاحرار المستقلين أو عرف بحزب العشرين ولم يكن لهذا الحزب أى دور في عهد الاستعمار، لكنه أصبح يكون في عهد الاستقلال أحد التنظيمات التي تمثل المصالح الفرنسية بالمغرب وعنصريه الرئيسيين هم محمد رشيد ملين ومحمد رضا كديرة .

الصراع من أجل الاستقلال :

توسعت رقعة المنظمات السياسية بعد نهاية الحرب العالمية الثانية وخاصة حزب الاستقلال الذي صار حزبا جماهيريا كبيرا وظهر ثقله في الميدان السياسي وتأثيره على توجيه الاحداث . . ووصل هذا التأثير حتى بلغ السلطان الذي أخذ في علاقته مع فرنسا يطالب رسميا بمطالب الوطنين . كما أن حزب الاستقلال قد حول بعض المجهودات الى الخارج . حيث قدم الحزب وثيقة الاستقلال الى جمعية هيئة الامم المتحدة التي كانت مجتمعة في باريس سنة ١٩٤٨ .

لكن الاستقاليون لم يحصلوا على أية نتيجة من مساهم لدى هذه المنظمة واستمروا في مساعيهم، وأدت ثقتهم بها واعتمادهم عليها لحل مشكلة المغرب الى أن أوفدوا بعثة دائمة الى نيويورك يترأسها بلافريج الذى انضم الى الوفد الباكستاني وساعدها في مهمتها بعض الوفود من الدول العربية والاسلامية . وأدى بعض هذه الوفود خدمة كبيرة للقضية المغربية أمام الرأي العام الدولي وخاصة منها وفد الباكستان بقيادة (ظفر الله خان) وفود مصر برئاسة (صلاح الدين) وفود العراق (فاضل الجمالي) والسعودية (الشقيري) . . ويمكن تفسير هذا الموقف من طرف الدول العربية والاسلامية ما طرأ على المغرب في أحداث الاربعينيات وخاصة منها تطور الحركة السياسية بالبلاد وتأسيس حزب الاستقلال وموقف السلطان تجاه العالم العربي الذي أعلنه في خطابه المشهور بطنجة سنة ١٩٤٧ والذي أثبت فيه انتماء المغرب الى أسرة الدول العربية وعزم المغرب على انتمائه الى الجامعة العربية بعد استقلاله . زيادة على روابطها التاريخية وتحالفها الطبيعي وسهرها على تسليم السلطة الى الرجعية المغربية، تمكنت البورجوازية بفضل تبني الجماهير الشعبية مبادئ حزب الاستقلال وتكوين قاعدته الواسعة التي اتصفت بالنضالية الصلبة والتضحية بجميع أنواعها، تمكنت هذه الاخيرة من بلوغ موقع القوة السياسية ذات المفعول الكبير . تطور نفوذه بسرعة كبيرة صارت تهدد مصالح الاستعمار الذي لم يكن على استعداد لاقتسام سلطته السياسية ومصالحة الاقتصادية مع البورجوازية المغربية، سيما وأن الاستعمار كان في مرحلة اصلاح مخلفات الحرب العالمية التي أنهكته، واعادة وجوده بالمستعمرات ، ذلك الوجود الذى ضعف اثر الانتفاضات الشعبية في شمال افريقيا والهند الصينية ومدغشقر ومستعمرات أخرى . انعكس هذا التطور السياسي للبورجوازية على المجتمع المغربي الذى عرف تغييرات كبيرة في أسلوب عيشه

وتفكيره، ولنذكر منها العطف والتأييد اللذان أخص بهما الشعب المغربي حزب الاستقلال . . وكلنا يذكر عملية "البطالين" والتبرعات الأخرى ومنها كذلك اهتمام الشعب الكبير بتطور الأحداث ومواقف حزب الاستقلال وتصرف المواطنين حسب تعليمات الأطر المتوسطة في هذا الحزب، وبعث المغاربة بأبنائهم إلى المدارس وغيرها من الظواهر التي دلت على تطور وطني كبير زاد في تهديد مصالح الاستعمار وخوفه من ضياع مستعمرته المغربية وبالتالي ضعف مكانه في أمبراطوريته الاستعمارية بأفريقيا وآسيا . . لذا عاد إلى تغيير سياسته في المستعمرات . وفيما يخص المغرب، فقد تخلص في نهاية الأربعينيات عن سياسة التساهل والإصلاح الجزئي وعاد فأعطى المسؤولية بالمغرب إلى العسكريين ونصب على رأس الإقامة العامة أحد جنرالاته المقتردين وهو الجنرال جوان، الشيء الذي يدل على أن فرنسا كانت تخشى إلى درجة كبيرة التطورات التي حدثت في المغرب وصممت على قمع كل حركة تحريرية للمغاربة مثلما فعلته غداة عقد الحماية سنة ١٩١٢، إذ أسندت السلطة بالمغرب إلى الجنرال ليوطي . . وفي أثناء ثورة الشمال بقيادة ابن عبد الكريم الخطابي، حيث كانت أوفدت إلى المغرب بأقدر عسكريين وهو الجنرال بيتان للتعاون مع ليوطي . لما حضر جوان إلى المغرب شرع في تطبيق الطرق التي اتبعها ليوطي . وكان اختيار فرنسا لهذا الحل، لاسترجاع سلطتها على المغرب، لا ينطلق من تقدير التغييرات التي سببتها الحرب العالمية . فسبب ذلك في تطور الوضع في المغرب وفي تعقيده بالنسبة لها، كما تسبب ذلك في إثارة الحذر لدى الشعب المغربي من جديد وجعله يعمل أكثر فأكثر للتخلص من الاستعمار . . كما أن هذا الاتجاه في السياسة الاستعمارية الفرنسية قد زاد في تصلب السلطان في موقفه الوطني وجعلت التعامل بين القصر والإقامة العامة شيئا مستحيلا مما جعل السلطان يتجه إلى باريس في مساعيه الإصلاحية، مثل سفره إلى هذه المدينة سنة ١٩٥٠، ورفض ادانة الوطنيين وإعطاء المبرر للاستعمار للقضاء على الحركة الوطنية . صاحبت سياسة القوة الفرنسية بالمغرب توظيفات الرأسمال الفرنسي، إذ دخلت إلى المغرب من سنة ١٩٤٦ إلى سنة ١٩٥٣، بما قدره ٥١٩٥ مليار فرنك، أي بمعدل ٦٤٩٣ مليار في السنة، في الوقت الذي دخلت فيه ما بين ١٩١٢ و١٩٤٥ ما قدره ٩٩٩٥ مليار فرنك، أي بمعدل ١٦٦٥ مليار في السنة وهذه العملية تبين عزم الرأسمال الاستعماري الفرنسي على استرجاع سيطرته على المغرب مثل ما كان عليه الوضع قبل الاستقلال، أي استغلال الخيرات الطبيعية والطاقات البشرية للبلاد بمقابل ضئيل، فقوى توظيف الرأسمال الفرنسي في الصناعة العصرية الشيء الذي زاد في تقوية التغييرات بالمجتمع المغربي . . فبحكم التصنيع، تقوى الطبقة العاملة وتنظيماتها النقابية وباكساح السوق بإنتاج الصناعة العصرية عرفت الصناعة التقليدية انتكاسة جديدة حادة قضت على أكثرها مثل "الدراز" و"الفخار" و"الحدادة" وغيرها . . كما قوت جماعة السماسرة المغاربة وزادت بذلك في تطوير البورجوازية المغربية .

ان هذه العوامل الاقتصادية والسياسية والاجتماعية المتعارضة بين الوطنية منها والاستعمارية قوت التصلب لدى الجانبين، كما تطورت الأساليب إلى درجة العنف . حاول الاستعمار أن يصبغ وجوده الاقتصادي والسياسي بالشرعية من جديد أي عن طريق المجالس القروية والحضرية للتجارة والصناعة والفلاحة المزدوجة وجعل المغاربة يقررون في هذه المجالس ما يصبو إليه الاستعمار . . لكن عناصر حزب الاستقلال قد أفسدت على الاستعمار لعبته واضطر الاستعمار إلى التخلي عن هذه المسرحية عندما طرد جوان التجار الاستقلاليين من الغرفة التجارية سنة ١٩٥٠، وكانت لهذه العملية أبعادا كبيرة، إذ أن الاستعمار بتخليه عن هذه الطريقة في الاستغلال قد اختار العنف وبصفة نهائية . ومن هذا التاريخ، صار جوان يحصل على توقيع السلطان ابن يوسف بالتهديد وحصل منه على التخلي عن الوطنيين الاستقلاليين والتبرؤ منهم، فعاد هذا الأخير وأعلن أنه وقع هذا القرار تحت الضغط والتهديد، لكن الأطر الإقليمية والوطنية لحزب الاستقلال وبعض الأطر الوطنية لحزب الشورى والاستقلال كانوا قد اعتقلوا أو نفوا مما زاد في تأزم الوضع، وتخلي الاستعمار عن مسرحيته التي أفسدها عليه حزب الاستقلال ولم يترك له في المجالس المذكورة إلا المعروفين بـ"بنبي وي وي" من

الاقطاعيين والخونة الذين ربطوا مصالحهم بمصالح الاستعمار، فصارت الإقامة العامة تحصل على كل المراسيم والظواهر لتثبيت موقعهم بالضغط والتهديد على السلطان وباستعمال العنف والارهاب في المدن والبوادي . . . وأعطت حوادث الدار البيضاء أحسن مثال، عندما تظاهر العمال سنة ١٩٥٢ احتجاجا على اغتيال النقابي التونسي فرحات حشاد، اذ قمع جيش الاستعمار المتظاهرين المسالمين قمعا وحشيا خلف آلاف الضحايا وجمد أطر النقابيين بنفيهم أو سجنهم .

عندما تطور التوتر بين القصر والإقامة العامة أى في الوقت الذى رفض فيه محمد بن يوسف توقيع ظهير استيطان الفرنسيين، عوضت فرنسا مقيميها العام بالمغرب ونصبت الجنرال كيوم الذى اتبع خطة سلفه وطورها، ولم يبخل بالوعد والوعيد كقوله: "اللي فات مات" و"الوطنيين غدى نوكلهم التبن" . . . فارتكب الاستعمار الفرنسي غلطة فادحة مرة أخرى، اذ تجاهل شخصية الشعب المغربي، ولم يستفد من التغييرات الاخيرة الحديثة بعد الحرب واستعمل الضغط والاكراه نتيجة احتقاره للاهليين، وتسببت فرنسا الاستعمارية بتصرفها في اثار غيظ الشعب وتوفير الاسباب والظروف للاضطدام العنيف . خلق تصرف الاستعمار جوا معاديا له وأبعد الاطر السياسية البورجوازية المسيرة بالبلاد ظانا أنه قد قطع "رأس الحنش" كما قال كيوم . وكان هذا التصرف أى عملية "قطع رأس الحنش" قد فتح المجال أمام قوة الجماهير الشعبية وأمام العناصر الثورية الحقيقية، اذ أن العناصر البورجوازية التي كانت تؤطر الجماهير وتفرض عليها التصرف والاتجاه الذى تريده القيادة البورجوازية لحزب الاستقلال، فقد فقدت كل سلطة فعلية على الجماهير، لان جزءا كبيرا منها كان مجمدا في المنفى أو السجن والجزء الباقي لم يكن في مستوى السيطرة والتحكم فيها، لان المفكرين والموجهين كانوا كلهم قد أبعدوا، كما أن السلطة المعنوية التي كانت لهذه الاطر على الجماهير لم تعد كافية في الوقت الذى بلغ هتك حرمت البلاد من طرف الاستعمار درجة تهدد بالانفجار . كما أن جزءا مهما من أطر الحزب تخلص عن خطة المهادنة والعمل السلمي للحزب وتبنت أعمال العنف ضد المحتل، فحملت على تنظيم المظاهرات وقويت العراقيل ضد الاستعمار . وزاد احتقاره للاهليين لتعنته وارتكاب الاغلاط الفادحة، فنظم مسرحية تغيير السلطان معتمدا على قادة الاقطاع وعلى رأسهم الكلاوى الذى خدم الاستعمار خدمة كلية بعد أن كان أبوه أحد قادة الاقطاعيين ضد الاحتلال الاجنبي . . . ذلك أن الحاج التهامي الكلاوى كباقي الاقطاعيين قد ربط مصالحه بمصالح الاستعمار واستمد سلطته من خدمته وأدرك أن استلام الحكم من طرف البورجوازية ليس في صالحه، بل وقد يعني ذلك نهايته، لان البورجوازية قد تحالفت مع الطبقات المحرومة وقد تعطيها بعض الاصلاحات على حساب الاقطاعية . . . كما أن البورجوازية تهدد كيان الاقطاعية نفسها بمنافستها في مصدر قوتها ووجودها أى في ملكية الاراضي . لذلك خاضت الاقطاعية لعبة الاستعمار، فعبت نفسها لتنصيب سلطان الاستعمار الثاني مولاي محمد بن عرفة . وهكذا تم خلع محمد بن يوسف ونفيه هو وعائلته الى كورسيكا ثم الى مدغشقر وذلك وسط موجة قوية من عمليات التأييد بالبادية لمحمد بن يوسف الذى أصبح يتمتع بشعبية كبيرة ووسط تحركات كبيرة لجماهير المدن التي قامت باضرابات ومظاهرات ضمت كل المواطنين من نساء ورجال وشيوخ من كل الفئات . . . ولم تمر هذه التحركات بدون اصطدامات مثلما حدث في حوادث ١٩٤٤، لكن بصفة أوسع وأعنف، لان الوعي السياسي والاجتماعي كان أقوى في سنة ١٩٥٣، ولان فراغ الميدان من القادة والاطر الحزبية التي كانت تقيد قوات الشعب وتقننها في اتجاه تكتيكها ترك الجماهير وجهها لوجه مع قوات الاستعمار، فكان لا بد من حدوث الاصطدام والوصول الى تفجير الوضع، اذ أن شعارات المسوءولين الوطنيين (ضبط الاعصاب والهدوء . . .) لم تعد مناسبة ولا مقنعة . . . وبخلع السلطان عن العرش قضى الاستعمار على كل أمل للوصول الى حل المشاكل القائمة عن طريق المفاوضات، كما قضى على

فعالية العناصر التي كانت تحمل هذه الشعارات، أي أطر حزب الاستقلال . وما أن نصب مولاي محمد بن عرفة وقام بأول مسرحية دينية في تنصيبه أي صلاة الجمعة الأولى بمسجد أهل فاس بالمشور بالرباط حتى تعرض لأول عملية الكفاح على يد البطل علال بن عبد الله . والانتماء السياسي والاجتماعي لهذا البطل يبين لنا من الذى أخذ على عاتقه مقاومة الوضع والعمل على ازالته . ان ما يفسر اخفاق الاستعمار في ارباب الشعب واخضاعه لمخططه ، هو كون الطبقات التي نظمت عمليات المقاومة المسلحة اختلفت كل الاختلاف عن الاطر التي قادت المعركة السياسية، فهي من عمال وشبان ومن مثقفين وفلاحين انبثقوا من الطبقة المحرومة أو من الشباب الثورى الذين اتصفوا بالخبرة . واستطاع هؤلاء الشباب أن يتخلصوا من سيطرة القادة الوطنيين، واقاموا تنظيما محكما توسعت رقعته وعمت أغلب المدن الكبرى مما زعزع أعمدة الاستعمار وخلقت الفوضى في تنظيماته واقتصاده فلم يكتف باظهار القوة واستعراضها في كل المدن، لان العمل المسلح وجد عطفًا وتجاوبا لا حد لهما داخل كل الاوساط المغربية باستثناء الاقطاعية والبورجوازية الكبيرة لحزب الاستقلال . . . وأدى هذا العطف وهذا التجاوب الى سير الجماهير في رفض التعامل مع الاستعمار ورفض الخضوع لاغراضه . . . وقاطعت الجماهير منتوجات الاستعمار وأعانت المقاومين بشتى الطرق، فأمن الشعب بطريقة الكفاح المسلح ومواجهة العنف بالعنف للتخلص من الاستعمار . . . وتبلور كفاحها عندما تأسس جيش التحرير الشعبي الذى كون حلقة هامة في قوة المقاومة للاستعمار وتحقيق الثورة الشعبية، اذ أن جيش التحرير امتاز بتكوينه، فلقد ضم عناصر انتمت الى كل نواحي البلاد من عمال البادية والمدن، كانت غايتها زيادة على التحرر، ارادة الاصلاح الاجتماعي والاقتصادى والسياسي وذلك بحكم تعارض مصالحها مع مصالح الاقطاعية والبورجوازية والاستعمار . . . وهكذا تحول هذا الجيش من طفته الوطنية بعد تأسيسه الى جيش شعبي ثورى بما في ذلك من معنى في اواخر عهد الحماية الفرنسية . لقد فهم الاستعمار الخطر الذى يتعرض اليه على يد المقاومة المسلحة المغربية والقضاء النهائي على مصالحه بقلب الوضع بالمغرب والقضاء على كل التنظيمات الاقطاعية والرواسب الرجعية وتخليص البلاد من عناصر التأخر . فخشي الاستعمار تبلور هذه الحركة واتجاهها الى تأسيس نظام شعبي بالبلاد يحول دون أى استفادة أوروبية وتأثير أجنبي على المغرب . كما أن الاستعمار كان متشتت القوى، فهو يواجه أكبر وأعنف ثورة عرفها النظام الاستعماري الاوروبي وذلك في حرب الهند الصينية بقيادة الابطال الفيتناميين، كما عمت مستعمرات فرنسا بافريقيا موجات تحررية زادت من ضعف الكيان الاستعماري الفرنسي خاصة في شمال افريقيا، اذ عمت الثورة تونس والجزائر والمغرب وظهرت بوادر وحدة الكفاح المسلح من أجل تحرير شعوب البلدان الثلاثة، خاصة بعد انفجار ثورة الريف بنزول جيش التحرير الى ميدان المعركة في ٢ اكتوبر ١٩٥٥، واقرنت عملية تيزى وزو بعملية تيزى وسلي وأخذت أسس وحدة كفاح شعب المغرب العربي تلتحم في ميدان المعركة، فأدركت حكومة فرنسا الخطر الكبير الذى ينتج عن هذه الوحدة لا بالنسبة لمصالح الرأسمال الاستعماري الفرنسي فحسب ولكن أيضا بالنسبة لميزان القوى الثورية بالمغرب واعطائها أهدافا موحدة لا بد وأن تقوى جانب القوى الشعبية بالبلدان الثلاثة وتحقق أهداف الجماهير من الاستيلاء على السلطة السياسية والاقتصادية والقيام بالاصلاحات التي تقطع الطريق على الامبريالية والرأسمال الاوروبي بتصفية الاقطاعية والبورجوازية الكبيرة والانتماء الى المعسكر الاشتراكي بصفة أو أخرى . أرغمت الوضعية الثورية التي عمت كل مناطق المستعمرات الفرنسية الحكومة والرأسمال الفرنسي أن يلتجئوا الى خطة الولايات المتحدة التي وضعتها في مخطط سياستها الخارجية بعد الحرب العالمية الثانية، أى أن تعوض الوجود المباشر للاستعمار بوجود أضمن وأقوى وهو وضع "الاهليين" مكان الاوروبيين في تسيير دواليب الدولة مع اعطاء الدولة الجديدة تنظيما واتجاها يربطها ربطا وثيقا ونهائيا بالوطن الام السابق ويفسح كذلك المجال للامبريالية العالمية لتغزو سوقه وتزيد في تقييده، اذ أنها تصبح تتحكم في انتاجه وسوقه الداخلية والخارجية وبالتالي يمكنها أن تملّي

عليه سياستها الخارجية التجارية منها والعسكرية والدبلوماسية... هذا ما عرف بالاستعمار الجديد والذي فسره المؤتمرون الثالث لمنظمة الشعوب الافريقية في مارس ١٩٦١: "ومتى بدا أنه لا مناص للاستعمار من الاعتراف بالاستقلال في مضمونه التحرري الصحيح، اما بفرض اتفاقيات غير متكافئة في الشؤون الاقتصادية والعسكرية والفنية واما بتنصيب حكومات عميلة عن طريق انتخابات مزورة واما باختراع أشكال دستورية بدعوى تنظيم تعايش القوميات المختلفة... بينما هي في الحقيقة ضمان للسيطرة العنصرية لفائدة المستعمرين... وعندما لا تجدى نفعا هذه المناورات في النيل من نضالية المنظمات الشعبية التحررية وتصميم عزمها، فان الاستعمار وهو في النزاع الاخير يعتمد الى التستر وراء شبه الشرعية، والتدخل الموجه للامم المتحدة".

مفاوضات ايكس لبيان واجهاض الاستقلال :

هذا ما فعله الاستعمار في المغرب وتونس وهو الشيء الذي ذكره المهدي بن بركة في (الاختيار الثوري) : "وقد تمت "ايكس لبيان" عند هذه المرحلة بالذات، أي عند نهاية تطوره طرحت فيها موضوعا قضائيا جوهريا بالنسبة لمعركتنا، وهي دور وأهداف الجماهير الكادحة الحضرية مع ضرورة ارتباطها بالجماهير القروية ومسألة اللجوء الى العنف لا في اطار محلي ضيق وانما في مستوى أفقي متسع في النضال ضد الاستعمار". والمستوى الأفقي المتسع في النضال ضد الاستعمار يقصد الكفاح على مستوى بلدان شمال افريقيا وبناء أسس وحدتها في الكفاح الموجد لادماج أفكارها ببعضها البعض وتوحيد أيديولوجيتها التي لا يمكن أن تكون الا خاضعة لمصالح وأهداف الطبقات التي تخوض المعركة. ولهذا كان على قادة الحركات الثورية ألا يقدموا على موقف خطير بالنسبة لهذه الحركة الثورية للبلدان الثلاثة الا نتيجة موقف موحد في أي حل يتخذ التزاما لميثاق ثورة المغرب العربي الذي حدد بين تونس والجزائر والمغرب قبل بداية العمل المسلح. الا أن فيما يخص المغرب، كما ذكر المهدي بن بركة، فان المفاوضات المغربية بايكس لبيان قد قبلوا الحلول المفروضة عليهم والتي أدت الى اتفاقية "ايكس لبيان" والتي وقعها ابن يوسف ونصت على استقلال المغرب. فوافق بذلك المفاوضون المغربي ومن ورائهم القادة السياسيون البورجوازيون الناطقون باسم الثورة المغربية على المؤامرات التي حيكت ضد الشعب المغربي والجزائري بفصل الاولى عن الثانية وعزل الثورة الجزائرية عن حليفاتها الطبيعية الثورة المغربية. كما أن ثورة المغرب قد انتكست بعد الاستقلال السابق لوانه، اذ أن المدة لم تكن كافية للقضاء على هياكل الرجعية والاقطاعية وابرار أيديولوجية الطبقات الكادحة وتكوين قادتها ورفعهم الى مستوى المسؤولية العالية في الكفاح المسلح. لقد تمت "ايكس لبيان" في غياب الثورة المسلحة وبتأمر عليها من طرف بورجوازية الحزب والاستعمار. ويجب التمعن هنا في موقف القيادة البورجوازية الحزبية ازاء المقاومة لادراك موقفها المتأمر باستمرار على المقاومة الى أن صفتها.

كان الحزب يعبر عن أفق العمل المسلح، لكن في الواقع كانت البورجوازية الحزبية تخشى العمل الشعبي العنيف، وادراكا منها أنه في احدى مراحل سيوجه ضرباته اليها ويصفيها مثل تصفيته لباقي المتطقلين على مصالحه. وهذا الذي يفسر لنا رفض الحزب تزويد المقاومة بالمال عندما توجهت اليه في بداية عملها، وهو الذي يفسر لنا كذلك معارضة الحزب للمقاومة باصدار التعليمات الى أطره بعدم التعاون مع رجال المقاومة واستنكاره الرسمي لعملية "المارشي سنترال" والسكوت عن الوضعية السيئة للمقاومين في السجون، ورفض الدخول في قيادة العمل المسلح وأشكال أخرى من تأمره، كتجميع الحزب للحركة السياسية التي قامت حول البكاي في باريس للتعبيل بالاستقلال... كل هذا أدى الى التنافر بين بين حركة المقاومة وحركة السياسيين، ودفع بقيادة المقاومة الى التعامل مع القصر وهي عناصر غير مسيسة، فسقطت في أيدي عدو لا يقل خطورة عن البورجوازية... عمل بتعاون مع البورجوازية الحزبية على تصفية المقاومة وجيش التحرير فيما بعد.

كانت اتفاقية "ايكس ليبان" أبعد من ذلك، قال المهدي بن بركة في نفس الكتاب : "لقد وقفنا من قضية الديمقراطية موقفا خاطئا، فقد كان من البديهي أن تكون النتيجة المنطقية لتسوية "ايكس ليبان" بالنسبة لحركة التحرير هي أن تفرض مراجعة كاملة للجهاز السياسي والإداري في البلاد، لافحسب لأن ذلك كان هو المطلب الشعبي الأول قبل أن توضع مسألة الملكية سنة ١٩٥٣، بل يتسنى تحديد المسؤوليات دون تأخر... إلا أن خطة الاستعمار نجحت في أن تجعل قضية السيادة المغربية وكأنها تتلخص في مشكلة رجوع الملك كرمز لهذه السيادة. وسلك الاقطاع المغربي بايحاء من هذه السلطات الاستعمارية بنفس الخطة التي كانت تخدم الاستعمار ثم الاقطاع في آن واحد"... وهكذا نرى أن الاستعمار قد نجح بفضل تخاذل وفد حزب الاستقلال في المفاوضات وقبوله أنصاف الحلول، إذ أنه لم يتمكن حتى من ضمان مصالح البورجوازية في اتفاقية الاستقلال، لأن هذه الاتفاقية كانت قد حولت المشكلة المغربية من استقلال شعب إلى إعادة سلطان كان قد خلع من عرشه، وهذا ما لم يعه المغاربة رغم أن الفكرة التي كانت تروج في أوائل عهد المقاومة المسلحة، كما جاء في كتاب "شارل لوكران" : (العدالة وطن الانسان) الذي يتكلم فيه عن محاكمة البطل حمان الفطواكي الذي قال له رئيس المحكمة : "يجمل بكم أن تطالبوا باستقلال بلادكم لا برجوع السلطان". وكانت هذه العملية من أكبر المواقفات التي قام بها الاستعمار وسائره فيها الاقطاع والبورجوازية الاستقلالية عن طريق وفودها في المفاوضات، ذلك أن السلطان بعد رجوعه، عاد فضم كل السلطات بين يديه وبرر موقفه هذا بعدة مبررات، منها أن البلاد تحتاج إلى تنظيمات تأسيسية على مستوى المدن والبادي وتأسيس مجلس استشاري ليكون بمثابة المدرسة البرلمانية للمغاربة وخرافات أخرى من هذا النوع. وكان لتوقيع السلطان ابن يوسف لاتفاقية "سان كلو" اضافة الصبغة التمثيلية وتجسيم السلطة المركزية في يديه وذلك للحيلولة دون القوى الوطنية البورجوازية من وضع مؤسسات ديموقراطية تمثل الشعب في المفاوضات مع فرنسا على الاستقلال، إذ كان من شأن ذلك أن يحد من سلطة السلطان ويبعد الاقطاعية حليفة الاستعمار الكبرى. والسلطان بتصرفه هذا قام بعمليات مزيفة ذات الصبغة الديمقراطية، في نفس الوقت الذي صار فيه يبني سلطته المطلقة. فاستغل تجميع السلطات في شخصه لبناء أسس دولة الحكم الفردي، فهو الذي ينصب الحكومة ويقيها كما أنها مسؤولة أمامه وهو الذي يوافق أو يرفض في النهاية أي مشروع حكومي وهو الذي يعين أعضاء المجلس الأعلى للقضاة... فاغتصب سلطات الشعب واحتكر جهاز التنفيذ من وزارة الداخلية وأجهزة الامن ووزارة الدفاع ونصب نفسه قائدا أعلى للجيش الذي يؤدى له القسم لا للامة، ويتعهد بهذا القسم لخدمة القصر ليس إلا.

قال المهدي بن بركة في (الاختيار الثوري) : "هل من حاجة إلى التذكير بالمعارك المتعددة التي اضطررنا لخوضها من سنة ١٩٥٦ إلى ١٩٦٠ دون أن يعرف الشعب شيئا عنها وكلها كانت تدور بين جدران أساطين حزب الاستقلال أو داخل القصور الملكية دون أن ينفذ صداها إلى الخارج... ولم نقم بواجب التوضيح أمام الرأي العام لهذه المعارك المتعددة على تعاقب الحكومات في الوزارتين الائتلافيتين الأولى والثانية إلى حكومة بلافريج وعبد الله ابراهيم. ولم نقل للشعب أننا كنا فاقدين لوسائل تنفيذ برنامجنا". لقد قام السلطان محمد بن يوسف بمسرحية من نوع "تارتيف" وأتقن دوره على أحسن ما يمكن. لقد تظاهر بالترفع على المنافسات السياسية التي لم يكن لها وجود قبل الاستقلال والتي خلقها الاستعمار بمفاوضات ايكس ليبان وتبناها السلطان. ترفع على هذه الصراعات السياسية الصورية ونصب نفسه ممثل الشعب وحامي مصالحه وأظهر نفسه كأكبر مدافع عنه لينزع هذا الدور عن حزب الاستقلال، في الوقت الذي كان يعمل فيه على تفتيت الثورة وتنظيماتها وقطع الطريق على الجماهير الشعبية من تحقيق التغيرات التي كان من حقها أن تقوم بها بعد أن تخلصت من الاستعمار. وفي هذا الإطار، يدخل الموقف الابوي الذي اتخذه من منظمة

العمال ومن جيش التحرير. لقد تكونت هاتان المنظمتان الشعبيتان العظيمتان في ميدان المعركة. تكون جيش التحرير الشعبي مكملًا للحركة المسلحة الحضرية وتأسس الاتحاد المغربي للشغل في ١٩٥٥ بالدار البيضاء فأعطى العمال وكل الكادحين منظمة قوية بتنظيمها واختيارها. وكان المقصود من تبني القصر لهاتين المنظمتين هو جعل الأولى نقابة رسمية مبعدة عن كل محتوى نضالي طبقي وادماج الثانية في الجيش. وتمكن السلطان - الذي أطلق على نفسه اسم الملك محمد الخامس في إطار الديماغوجية المقنعة بالإصلاح - من النجاح في القضاء على جيش التحرير والمقاومة وخسر في مؤامراته ضد الطبقة العاملة مع أن الرجعية والبورجوازية ساعدته في كلتا العمليتين مساعدة كبيرة. قال ابن بركة في كتابه المذكور آنفاً: " وهكذا في المعارك التي دارت داخل اللجنة التنفيذية أو اللجنة السياسية لحزب الاستقلال حتى ٢٥ يناير ١٩٥٩، فإن انزلاق بعض القادة في طريق المساومات الانتهازية، بل ومساهمتهم في المؤامرات الخسيسة ضد جيش التحرير والمقاومة أو النقابات العمالية كان منشأ اصطدامات عنيفة لو أعلن عنها في أبنائها لوفرت علينا كثيراً من الوقت وخيبة الأمل والمزيد من التضحيات... ". نجح القصر ومع الرجعية والبورجوازية في تشتيت جيش التحرير واتلاف تنظيمات المقاومة ولم يتمكن من القضاء على النقابة. وهذه ظاهرة تستلزم البحث فيها وإدراك الأسباب التي أدت إلى زوال المنظمتين الأولى وتبني وصمود الأخيرة لنستخرج العبرة ونجعلها إحدى مقاييسنا لتحقيقاتنا في المستقبل. لماذا نجح القصر في جانب من المؤامرة وخفق في الجانب الثاني؟ ولكي لا نتترك هذا التحليل مجرداً عن إطاره الوطني يجب أن نتعرض أولاً إلى سؤال آخر، هو كيف تمكن القصر ومع الاقطاعية والبورجوازية من غضب الشعب ثورته؟

مؤامرة ايكس ليبان واغتصاب سلطة الشعب :

إن أسباب انتكاسة الشعب في ثورته ترجع إلى رواسب مجتمعتنا القديم وإلى الانطلاقة السياسية المنحرفة لجماهير الشعب المغربي أثناء الحرب العالمية الثانية مما أدى إلى نجاح المتآمرين على الشعب من استعماريين ورجعيين وبورجوازيين. رأينا أن رواسب مجتمعتنا كانت من الأسباب التي عرضت البلاد إلى الاحتلال. ونعني بهذه الرواسب الفكرية منها والعقائدية والاقتصادية ونظام توزيع السلطات. كما رأينا أنه من فجر انبعاثه شعبنا في السنين الأخيرة من استعمارنا كيف أن الحركة التحريرية السياسية خضعت لايدولوجية البورجوازية وكيف أن جميع الأحزاب كانت خاضعة لهذه الفلسفة كما أن الحزب الشيوعي - الذي حسب المفهوم المبدئي للشيوعية حزب طلائعي - حرم من القاعدة الشعبية نظراً لمفعول الدعاية الامبريالية التي وجدت ميداناً خصباً لها في الاعتقادات المذهبية المشوهة التي كانت مهيمنة على الشعب، وكيف أن هذا الحزب حمل عناصر فشله لانتمائه إلى الحزب الفرنسي وتبنيه خطة هذا الحزب في مشكلة المستعمرات الفرنسية فبقي بذلك يعيش على هامش المعركة الشعبية ضد الاستعمار. كل هذه العوامل أثرت كثيراً على الثورة المسلحة لشعبنا ومكنت الاستعمار من تحقيق مؤامراته ضد الشعب المغربي التي ظهرت منذ البداية في تشخيص قضيته في مشكلة السلطان والتفاوض على أساس رجوعه من المنفى إلى المغرب، لا على الإصلاحات التي تسببت في أزمة ١٩٥٣ وقام الشعب من أجلها. إلا أن هذه المطالب قرنت بمطالب رجوع السلطان وفاءً من الجماهير له، لأنه قبل النفي عوض الخضوع أمام عجرة الجنرالات الفرنسيين ورفض الإصلاحات التي كانوا يفرضونها عليه والتي كانت ستعيده إلى الوضعية التي كان عليها قبل ١٩٤٦ أي أداة طيعة في يد الاستعمار. ذلك أن السلطان في ١٩٤٤ إلى ١٩٥٣ كان قد مارس نوعاً من السلطة، فقد كان يعرف أن الشعب لا بد وأن يتخلص من سلطان الاستعمار الذي يتنازل أمام مطالب الاجنبي على حساب البلاد، بل وأنه يطيح

بالعائلة الحاكمة ان هي أقدمت على التعامل مع الاجانب . لقد أدرك محمد بن يوسف هذه الحقيقة التي تكررت عدة مرات في تاريخ المغرب واستفاد من التطورات لاعادة شرعية العرش العلوي لدى المغاربة بتزعمه المطالبة بالاستقلال متجاوبا بذلك مع أقوى مطلب وطني للمغاربة منذ أن أصبحوا ينظمون دولة كما رأينا سابقا . وكلنا يتذكر شعبية ابن يوسف ولم يكن ذلك هو الدافع الوحيد لتزعمه حركة التحرير ذلك أنه كان يطمح في الاستيلاء على السلطة الفعلية التي كانت حسب تقاليد الحكم بالمغرب كاملة لا يتقاسمها السلطان مع أية مؤسسة . ومعنى استيلاء محمد بن يوسف على السلطة المطلقة هو اعادة تمركز دولة العلويين خاصة وأن الشعب والمنظمات السياسية جعلت منه سلطانا وطنيا وأعطته ثقته . وكان هذا كافيا لتحقيق أغراضه متظاهرا بالعمل لصالح الشعب والتفاني في خدمته . كان الاستعمار الفرنسي واعيا لهذه الحقائق فعمل على انجاح مساعي ابن يوسف في الوقت الذي فرض عليه الانسحاب من المغرب . ذلك أن حكم السلطان للمغرب يتجاوب مع مصالح الاستعمار أكثر من أي حكم آخر بورجوازيًا كان أم تقدميا ، وهذا ما يفسره قول ابن بركة في كتابه : " أن تكون بيد الحكومة سائر وسائل السلطة ، وبالاخص الاشراف على موظفي وزارة الداخلية والمحافظين ، وكذلك مصالح الجيش والشرطة والدرك التي كان القصر يعمل على احتكارها . وكنا كلما وضعنا مشكلة هذه المناطق المحرمة أو أدرجناها في جدول أعمال أحد المجالس الوزارية ، وجدنا أنفسنا موضع هجوم مركز من طرف الصحافة الاستعمارية الفرنسية تحت عناوين بارزة ، منشئات (العرش المغربي في خطر) وفي ذلك منتهى المفارقة لصدوره من أولئك الذين اعتدوا على العرش من قبل ثلاث سنوات . . " ، أي أن الاستعمار عندما فضل ابن يوسف على أية حكومة وطنية أخرى عبأ طاقاته لوضع أسس الحكم المطلق في يد السلطان ولتوفير الفئات الحليفة له . وهكذا التقت مصالح الاستعمار ومصالح القصر في فجر الاستقلال فخطط الاول ، ونفذ الثاني . لقد أحاط الاستعمار مؤامرة "ايكس ليبان" بمسرحية الاصلاح والديموقراطية التي أبعدت أنظار الشعب عن هذه المؤامرة . وبعد عودة ابن يوسف من المنفى الى فرنسا ، نظم الاستعمار مسرحية الكلاوى الذى طلب العفو من السلطان ، فنتج عنها مكسب مزدوج للسلطان وللإستعمار ، إذ عفى كل الاقطاعيين الذين ساندوا فرنسا في عملية خلعه سنة ١٩٥٣ ، وبهذا تكون فرنسا قد حصلت على تبرئة ساحة الاقطاعية المغربية وأخلاء الجول لها للقيام بدورها الكامل الى جانب الاستعمار الجديد ليجد فيها السلطان خير سند وعون في الحكم المطلق ، فصارت الاقطاعية حليفة للسلطان بعد أن كانت معادية له .

العنصر الثاني في مؤامرة الاستعمار ، هو فرض تعداد الهيئات المفاوضة بـ "ايكس ليبان" الى جانب حزب الاستقلال الذى كان الحزب السياسي المنظم الوحيد ، اذا استثنينا محاولة تنظيم حزب الشورى والاستقلال من جديد غداة رجوع السلطان الى فرنسا ، فلم يكن بالمغرب أى حزب سياسي آخر ذو تمثيلية واقعية . وأما الاقطاعية التي كانت الى جانب الاستعمار في عملية الخلع وفي قمع الثورة الشعبية ، ثار الشعب ضدها وضد الاستعمار في نفس الوقت . لذلك فقد كان على حزب الاستقلال والشعب أن يرفضوا مشاركة هذه الاقطاعية في المفاوضات ؛ تنازل الاستقاليون أمام عزم فرنسا على احضارها في "ايكس ليبان" ، كان هذا بمثابة تنازل خطير أعطى للاستعمار الفرنسي امكانية تحقيق أهدافه عن طريق هذه الفئة ، أو على الأقل جعل هذه الفئة تعارض المطالب الشعبية والتي تعمل البورجوازية على تحقيقها ، أى لتجعل تطبيق هذه الاصلاحات تخضع لمصالحها أولا قبل أن تخدم مصالح الشعب . أما الاستقاليون المعبرون عن مصالح البورجوازية المغربية والممثلون للجماهير الشعبية فانهم وجدوا أنفسهم بحكم قبولهم الجلوس الى جانب الاقطاعية في المفاوضات أمام قوتين متناسقتين متكاملتين زاد في خطورتهما تعبير احدي الفئات عن مصالح طبقة من المغاربة ، فكان الاستقاليون قد انطلقوا مقيدين بهذه الوضعية في المفاوضات . وما يقال عن الاقطاعية يمكن قوله عن البورجوازية البيروقراطية التي مثلت الطرف المغربي الثالث في المفاوضات والممثلة في الفاطمي بن

سليمان من عائلة وزير خارجية مولاى الحسن ثم عبد العزيز والذى امتاز بعطفه على فرنسا وعمل على تقوية "الصداقة" الفرنسية المغربية التي ساعدت على استعمار البلاد . . ولما قبل الاستقاليون بحضور هذه الفئات قبلوا في نفس الوقت التنازل لهم على ضمانات ومقاسمهم السلطة (صوريا) والمصالح بصفة عامة . وهذه أكبر خدمة أداها الاستقاليون للمستعمر ومن ثم للقصر . ثم جاءت الحلقة الثانية في مؤامرة أعداء الشعب نظمها الاستعمار وقام بتحقيقها القصر والاقطاع وتبناها السياسيون وهي مسرحية مجلس التاج ضمت ممثلين للاقطاعية هما المختار السوسي الذى اتصف بانتماؤه للاقطاعية وكذا انتماؤه للحركة الوطنية منذ بدايتها والحسن اليوسي ممثل اقطاعية الاطلس المتوسط وممثل الاقطاعية الكبيرة التي اتصفت بكل الصفات التي رأيناها في مختلف مراحل التاريخ المغربي، ثم مولاى العربي العلوى، الذى زيادة عن كونه علوى، فهو من علماء المغرب الذى كان من المفروض فيه أن يمثل المفكرين الرجعيين بالبلاد . . الا أن هذا الحكم كان خاطئا، لان هذا الرجل قضى حياته في التجاوب مع الشعب وترفع عن الاستفادة من الامتيازات . . وهذا هو السبب الذى جعله ينسحب من المجلس ويبطل لعبة الاستعمار والقصر عندما ظهر له انحراف القصر وخيانتة لمصالح الشعب . لقد قصدت لعبة مجلس التاج اعطاء الملكية بالمغرب في عهد الاستقلال صبغة الدستورية، اذ أن هذه العملية تتجاوب الى حد ما مع مطالب الشعب في النظام الدستورى بدعوى أن أن السلطان خاضع للسلطة الدينية والدينيوية لهذا المجلس، اذ أنه كان مقيدا باستشارته . وقد كان هذا المجلس يتركب نظريا من مثلي الفئات الشعبية . . أما في الواقع، فانه كان يضم المتطفلين على مصالح الشعب وأعدائه . ولما تفجر هذا المجلس انكشفت لعبة الاستعمار والقصر .

ومن مكاسب الاستعمار في مؤامرة "ايكس لبيان" بنود الاتفاقية الخاصة بالجيش والداخلية وسياسة الاقتصاد المغربي، اذ أن الاستعمار حصل على بقاء قواته وأطره في الداخلية والادارات الاخرى ليتمكن من السهر على بناء التنظيمات التنفيذية حسب مصالحه وربط المغرب باقتصاده واستراتيجيته السياسية والعسكرية فمكن القصر من السيطرة على الجهاز التنفيذي الذى يسهر على مصالحه ومصالح الاستعمار وحلفائهما، ومكنه كذلك من المحافظة على السلطة المطلقة .

اذا كان هذا هو دور القصر وحلفائه الاستعمار والاقطاع في اغتصاب ثورة الشعب، فما هو دور البورجوازية في هذه العملية؟ قبل الاجابة على هذا السؤال يجب أن نذكر بعض الحوادث التي تبين لنا تطور العلاقة بين القصر وبين السياسيين من هذه البورجوازية قبل أزمة ١٩٥٣، لنتمكن من ادراك موقفها في "ايكس لبيان" . رأينا أن السلطان ابن يوسف أخذ يتقرب الى الوطنيين في الثلاثينات وتطور هذا التقارب الى أن أدى في ديسمبر ١٩٤٣ الى أداء اليمين سريا بين السلطان وزعماء الحزب من أجل الاستقلال والدستور، كما أن خطاب طنجة المشهور في عام ١٩٤٧، قد تم باتفاق مع حزب الاستقلال، والوثيقة التي قدمها السلطان الى الحكومة الفرنسية أثناء زيارته لباريس في سنة ١٩٥٠، كانت قد حررت من طرف حزب الاستقلال . . ان هذه الحقائق تبين نوع التحالف الذى كان قد عقد بين القصر وبين حزب الاستقلال، وهو الذى يفسر حملة الحزب لاعادة ثقة الشعب بالسلطان واحترامها له . . وتطورت هذه الحملة الى أن صارت تخلط بين تعلق الشعب بالسلطان وبين تحقيق مطالبها الاساسية، فثاقت القيادة البورجوازية للحزب بتحالفها مع السلطان واعتمدت عليه كضمانة لتطبيق برامجها بعد التخلص من الاستعمار في الوصول الى غايتها، أى السيطرة على السلطة وتعويض الاستعمار في القطاع الاقتصادى . . فلما تعرضت الى مواجهة مؤامرة الاستعمار في ايكس لبيان، لم تتردد في قبول الصيغة التي فرضها الاستعمار، أى التفاوض على رجوع السلطان وربط هذا الرجوع بالاستقلال، خاضعة بذلك لضغطه ومتخاذلة أمام أول صعوبة في المفاوضات وقبلت أنصاف الحلول واثقة من أن السلطان سيخلص للاتفاقية المعقودة بينه وبينها . وأكثر من هذا فقبولها تعويض مشكلة الشعب بمشكلة اعادة السلطان، انتظرت البورجوازية من هذا الاخير أن يعترف لها بهذا الوفاء وأن يراعي

ذلك لاختها كحليفة في بناء الدولة الجديدة.. لقد تصرف قادة حزب الاستقلال هذا التصرف المتخاذل الذي تسبب في ابعاد البورجوازية الحزبية من قيادة البلاد بعد الاستقلال ومنع الشعب من الاستفادة من ثورته، نتيجة تقدير خاطي للوضع واختيار يقيد الثورة ويمنعها من تحقيق اصلاحات تمس بوجود البورجوازية نفسها. نرجع مرة أخرى الى كتاب المهدي بن بركة "الاختيار الثوري" الذي يكون احدى الوثائق القليلة التي نشرها أحد المسؤولين على المستوى الوطني، يقول المهدي: "ويظهر لي أننا في الماضي قد انزلنا نحو ثلاثة أخطاء رئيسية سوف تكون قاتلة لأمحالة ان لم ننداركها في الظروف الراهنة:

الخطأ الاول يرجع الى سوء تقديرنا لانصاف الحلول التي كنا مضطرين للاخذ بها.

الخطأ الثاني يتعلق بالاطار المغلق الذي مرت فيه بعض معاركنا بمعزل عن مشاركة الجماهير الشعبية

الخطأ الثالث نشأ عن عدم الوضوح في مواقفنا الايديولوجية وعن عدم تحديدنا لهوية حركتنا".

فالخطأ الاول الذي تعرض له المهدي أى عدم تقدير أنصاف الحلول ممكن مناقشته، اذ أن

الاستعمار أكثر دهاء وتجربة من القادة الوطنيين الحديثي العهد في مواجهة مشاكل الدولة كمسؤولين، لكن

سوء التقدير هذا يصبح خطيرا ويلزم محاسبة المسؤولين ولين عليه عندما نثبت اضافته الى تقديرات أخرى والى

الاختيارات الناتجة عنها، فحزب الاستقلال قبل بتعدد الوفود في المفاوضات وتبنى المفاوضات على أساس

رجوع السلطان، اذ كان يعتمد على التحالف مع هذا السلطان لتحقيق غايته في الاستقلال، وقبلها كذلك

لتتاح له فرصة اعادة تنظيمه والنزول بثقل منظمته الجماهيرية القوية في المفاوضات والتعامل مع القصر وربط

التنظيمات الثورية وتسييرها، يقول المهدي: "اننا في الحقيقة لم ندرك معنى المنعرج الذي وصلت اليه

حركتنا ولم نتخذ له العدة في وقته لاسباب يمكن مناقشة صلاحيتها ولكن نتيجتها الملموسة هي أننا عللنا

لانفسنا بأن تلك التسوية السياسية انما كانت توقفا مرحليا في مسيرتنا الثورية وكان مفروضا ضمنا أن يستغل

هذا التوقف كفترة استجمام للحركة الوطنية نستغلها لاعادة تنظيم نفسها ولمعالجة التضخم الذي أصابها

واستيعاب القطاعات الثورية الجديدة. غير أن هذه المحاولات وان كانت قد أنجزت بنية حسنة، إلا أنها لم

تكن موضوعة ضمن اطار استراتيجية شاملة جعلها تفضي الى نتائج عكسية، بل الى تعفن أجهزة الحركة

التحريرية" .. لم تكن في البداية نظرة المسؤولين موحدة. فاذا كان الشباب الحزبي مخلصا لثورة الشعب

ومؤمن بها، فان أغلبية القيادة الحزبية التي تمثل البورجوازية الكبيرة أو مصالحها على الاقل، كانت تنظر

الى هذه الاشياء من زاوية خاصة لا صلة لها بأهداف الطبقة الكادحة وهم الذين عملوا على تعفن أجهزة

الحركة الثورية كما يقول المهدي، اذ أن الجناح الثوري في الحزب اعتبر التسوية السياسية توقفا مرحليا في

مسيرة الثورة، في الوقت الذي لم يكن هذا التوقف المرحلي يخضع لايديولوجية واضحة واستراتيجية محددة،

فاستفاد الجناح اليميني في قيادة الحزب من الوضعية ليسجل لحسابه أكبر ما يمكن من الربح، وأكبره ربح

الوقت ليسنى له فرصة تصفية القوات الثورية وتنظيماتها. ومما ساعد الجناح اليميني للحزب في تحقيق

أغراضه، أى اخضاع الحزب لقبول عملية "ايكس لبيان" ونتائجها، ما تعرض له المهدي كخطأ ثالث نشأ عن

الغموض في مواقفنا الايديولوجية وعن عدم تحديدنا لهوية حركتنا، كان المهدي يتكلم في ذلك عن الحالة

بعد الاستقلال، لكن هذه الفكرة تنطبق حرفيا على الجناح الثوري وبالدرجة الاولى على قيادة هذا الجناح

داخل حزب الاستقلال قبل عملية "ايكس لبيان" وبعها. ونفهم هذا أكثر اذا تعمقنا في الفقرة التي قال فيها

المهدي: " ان البعض كان في أغلب الاحيان ينظر الى هذه الانحرافات الجديدة في صفوف الحركة الوطنية

مجرد نظرة عددية، ولم يكن يعتبر تلك الجماهير سوى وسيلة جبارة للضغط على المستعمرين، بينما كانت هذه

الجماهير تشكل بحكم تركيبها التحالف بين العمال والفلاحين المطرودين من الارض والنازحين الى مدن

القصدير. وبقي قسم مهم في قيادة الحركة الوطنية غير واع للمعنى العميق لهذا التحول الكيفي، ولما كان

ينبغي أن ينتج عنه من تحول في الاهداف وأساليب النضال. ومن هنا ندرك الاسباب العميقة لكثير من

التطورات في الحركة الوطنية " .

يصعب القول بأن القيادة اليمينية للحزب غابت عنها التغيرات التي طرأت على التكوين الطبقي للحزب، فالبورجوازية الاستقلالية أدركت معنى ذلك التحول في هيكل الحزب . . أما الجناح التقدمي فإن كان قد وعى هذه التغيرات فإنه لم يستخلص نتائجها ولم ينطلق منها في مواقفه، والا لما سمح بالتلاعبات والمؤامرات . ويدل على هذا طريقته في محاولة الحصول على الحلول ان كان يعتمد على محاولة ايجادها داخل قيادة حزب الاستقلال رغم الفوارق التي طرأت على المصالح وعلى القوات المكونة للحزب . يقول المهدي في الاخطاء الثلاثة : "الاطار المغلق الذي مرت فيه بعض معاركنا بمعزل عن مشاركة الجماهير الشعبية " . وقال : " هل شرحنا مغزى حل ايكس لبيان بعد أن ظهرت سياسة الخصم جلية . . ؟ كلا لم يقع شيء من ذلك ، بل أخذنا على حسابنا تلك الاتفاقية بما لها وما عليها وتقدمنا بها كعربون عن اندحار الاستعمار الفرنسي " . لم يقع التوضيح لا قبل ايكس لبيان ولا بعدها . وأخطر من هذا، فإن التقدميين ساهموا في لعبة البورجوازية وقبلوا حل المشاكل في اطار مغلق وساهموا في تغليب الشعب عندما قدموا له محصول المؤامرات وكأنها مكسب وطني . . ويزيد هذا في قبول أنصاف الحلول وتبنيها، مما يدل على تأخر الحزب عن الشعب حتى قبل الاستقلال . طبعا أن طريقة التقدميين هاته كانت ناتجة عن حسن نيتهم بالحزب وتعلقهم بتنظيمه الشيء الذي يدل مرة أخرى على أنهم لم يدركوا التغيرات الطبقية التي طرأت على الحزب ادراكا عميقا، إذ أن هذه الثقة والنية الحسنة تظهر لنا مرة أخرى أنهم لم يعوا الاختلاف الكلي لمصالح الجماهير عن مصالح الطبقة البورجوازية المسيطرة على قيادة التنظيم السياسي لهذه الجماهير وإلى اختلاف الطبقات من الناحية الايديولوجية . فبقيت هذه القيادة اليسارية بعيدة عن كل سند شعبي جماهيري فعال، إذ أن الجماهير كانت تجهل واقع المعارك السياسية، كما قال المهدي : "وهكذا في المعارك التي دارت داخل اللجنة التنفيذية أو اللجنة السياسية لحزب الاستقلال اصطدامات عنيفة لو أعلن عنها في ابائها لوفرت علينا كثيرا من الوقت وخيبة الامل والمزيد في التضحيات . . . " ، وبالتالي فإنها لم تستمر في تعبئة قوتها للمحافظة على نتائج ثورتها، فتصرف الناطقون الفعليون باسمها بمعزل عنها وعن تأثيرها . . الخ . يتبين لنا اذن من كل هذا موقف القيادة البورجوازية في ايكس لبيان، إذ أن هذه القيادة كانت قد اختارت الطريقة الرأسمالية لنظام الدولة واقتصادها، مما سمته فيما بعد بالملكية الدستورية، ويتضح لنا هذا الاختيار في التطور الذي سار عليه حزب الاستقلال في السنين الاولى للاستقلال .

يميل المرء الى اعتبار حزب الاستقلال منذ تأسيسه حتى ظهور الصراع داخله والذي أدى الى تفجيره وكأنه قوة متناسقة تربطها مصالح موحدة، خاصة عند انتقاد موقف هذا الحزب بالنسبة لايكس لبيان " في الوقت الذي يعلم الكل أن حزب الاستقلال ضم منذ تأسيسه طبقات متناقضة في الانتماء والمصالح والاهداف، لم يجمع بينها الا هدف التخلص من الاستعمار . لذلك فبقطع النظر عن مقاومة الاستعمار والتخلص منه، فإن كل نصر شعبي حصل عليه هذا الحزب يجب تفسيره كنصر لجماهيره الكادحة ولجناحه التقدمي، وكل انتكاسة شعبية يتسبب فيها الحزب تعتبر كمكسب تحصل عليه البورجوازية عن طريق ممثليها في الحزب . لم يكتب للشعب أن يقول كلمته في "ايكس لبيان" حيث قرر مصيره، لانه كان بعيدا عن كل ما يدور حوله ويجهل كل شيء منها وذهب ضحية ثقته واعتماده على حزب الاستقلال . وكانت هذه الثقة وهذا الاعتماد هما السببان اللذان مكنا حزب الاستقلال من أن يحرك هذه الجماهير حسب أهوائه ويقص عليها ما يريد . أما المنظمات الثورية — منظمة المقاومة وجيش التحرير الشعبي — فرغم تكوينها وتنظيمها خارج الحزب وبقائنها بعيدة عن قيادته السياسية، فإنها لم تتمكن من فرض وجهة نظرها لا عليه ولا على القصر والقوات الاخرى، ولم تساهم في اتخاذ الحلول في "ايكس لبيان" أو بعدها، ولم تتمكن من التأثير عليها، لانها كانت تفتقر للتنظيم السياسي لتعبر عن الطاقات الثورية في المقاومة وجيش التحرير الممثلين الحقيقيين لثورة الشعب المغربي . .

كان هذا النقص، في التنظيم الثوري والفراغ السياسي لقوات الثورة، نقصا خطيرا أدى الى تفكيك التنظيمات الثورية واغتصاب الثورة.

تكتسي "ايكس لبيان" بالنسبة للشعب قيمة لا تقل أهمية عن ميثاق الجزيرة واتفاقية الحماية لعدة أسباب، ولهذا وجب علينا فهمها بوضوح، فبمقدار ما وقع التساؤل في حق الاستعمار، هل هو مكسب أم نكسة؟ هل استفاد منه المغرب أم لا؟.. وجب التساؤل عن عملية "ايكس لبيان"، هل كانت مكسبا أم نكسة؟ وبالنسبة لمن؟ لقد فرضت عملية "ايكس لبيان" على المغرب الاستعمار الجديد كما فرضت عليه في الماضي عقد الحماية والاستعمار. ففي الداخل تحركت البورجوازية وأصبحت تهدف أكثر من الماضي الى تقاسم السلطة مع السلطان عن طريق الملكية الدستورية. والاقطاعية التي خفقت مع الاستعمار في قمع الثورة الشعبية أصبحت تهدف الى ابعاد الخطر بتحالفها مع السلطان من جديد.. والخطر هذه المرة يأتيها من الشعب وليس من الخارج. وهناك أيضا تحرك الفئات الشعبية التي أصبحت هي القوة الكبيرة في الميدان.. وهناك أيضا مصالح الاجانب، اذ أن الرأسمال الفرنسي قبل نظام الاستعمار وتبناه.. كما أن مصالح الامبريالية العالمية - لنفس الاسباب التي كانت في مطلع القرن - أصبحت كبيرة ومهمة، فالولايات المتحدة الامريكية وحلفاؤها الاوروبيون عازمون على ضم المغرب، كبلد افريقي ومن دول البحر المتوسط، الى رقعة نفوذهم.. كما أنها اختارت المغرب لتجعل منه قاعدة لشبكات مخابراتها تنطلق منه الى افريقيا.. كل هذه العناصر جعلت موقف السلطان في عام ١٩٥٥، يشابه موقف سلفه قبل الحماية. ومما زاد في خطورة موقف السلطان هو الصبغة الشعبية التي عرفتها الثورة في هذه المرة وثورة الشعب الشقيق بالجزائر التي تزيد في تعزيز قوى الشعب بالمغرب. فكان عرش العلويين مهددا مرة أخرى سيما وأن ابن عرفة، سلطان الاستعمار، هو أيضا من عائلة العلويين. ان هذا التحليل البسيط يساعدنا على فهم أكثر الاسباب التي دفعت بمحمد بن يوسف أن يقبل بالرجوع الى العرش ويقبل بناء الدولة كما وضع الاستعمار أسسها في "ايكس لبيان" و"سان كلو" ويتبنى مبدأ الاستعمار لدولة المغرب المستقل ويستعمل كل الوسائل ولا يدخر جهدا في بناء هذه الدولة التي يجدر بنا أن نبحث في تركيبها وفلسفتها لنندرك من المستفيد ومن الخاسر من استقلال المغرب.

بعد مفاوضات "ايكس لبيان" في أبريل ١٩٥٥، نصبت فرنسا مجلسا أطلق عليه اسم مجلس التاج في أكتوبر ١٩٥٥، وكلفته بمهمة تأسيس حكومة مؤقتة للمغرب، وكان قصد فرنسا تنصيب العناصر الموالية لها في هذه الحكومة ليتسنى لها تطبيق مخططها الاستعماري بالمغرب، اذ أنها لم تكن واثقة من تعامل محمد بن يوسف معها كما تريده، فاختارت الفاطمي بن سليمان لتأسيس الحكومة وهو كما رأينا من البورجوازية البيروقراطية العاطفة على فرنسا.. وفشلت هذه اللعبة لان حزب الاستقلال رفض مبدأ تأسيس الحكومة قبل رجوع محمد بن يوسف، ذلك لانه كان يطمح في الانفراد بمناصبها.. وعاد محمد بن يوسف في ١٦ نوفمبر الى المغرب بعد أن وقع وثيقة "لاسيل سان كلو".. وكان رجوعه انتصارا كبيرا للقصر ولعرش العلويين، بفضل مؤامرة الاستعمار وسير حزب الاستقلال في هذه المؤامرة.